والــدتي

محمد ظفر الله خان رضي الله عنه

تعريب: ريم شريقي

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: والدتي

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

Wālidatī
(My Mother)
By: Muhammad Zafarulla Khan

Translated from English into to Arabic by: Reem Shariqi

First Published in UK in 2009

By: Al-Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Tilford, Surrey

ISBN: 978-1-84880-411-1

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

كلمة الناشر

هذا الكتاب ليس مجرد سيرة والدة رئيس محكمة العدل الدولية ورئيس دورةٍ للجمعية العامة للأمم المتحدة ووزير خارجية، بل هو سيرة مؤمنة بالله إيمانا قلّما نجد له نظيرا. إنها سيرة مؤمنة يوحي الله إليها. إنها سيرة لا بدّ من معرفتها لتفسير هذا التأييد الرباني الذي حظي به ابنها الذي كان لإيمانها وأدعيتها دور كبير في إنجازاته بلا أدنى شك.

ومن أهم أحداث هذه السيرة محاربة هذه المؤمنة للشرك، وتصدّيها للشعوذة، وإيمانها الراسخ بأن القدرة لله وحده لا شريك له.. إنها قصتها مع المشعوذة الهندوسية.. إنها قصة انتصارها رغم موت ابنيْها بعد تهديد المشعوذة.

عرّب الكتاب الأخت ريم الشريقي، وقام بمراجعة الترجمة تميم أبو دقة وهاني طاهر وخالد عزام وعبد المجيد عامر، كما شارك في إخراج هذا الكتاب السادة محمد طاهر نديم، محمد أحمد نعيم وعبد المؤمن طاهر فجزاهم الله أحسن الجزاء.

ندعو الله تعالى أن يكون هذا الكتاب سببا لهداية من يقرؤه، ولتقوية إيمانه وانتصاره على الشرك بكل أنواعه. آمين.

الناشر

مقدمة المؤلف

"تُوفّيتْ والدتي في السادس من أيار/ مايو عام ١٩٣٨، وبحلول نهاية العام الأول من وفاتها قمت بنشر كتيب موجز عن سيرتها باللغة الأردية، مع مقدمة كتبها المرحوم صاحبزادة ميرزا بشير أحمد صاحب جاء فيها: إن ما قام به تشودري★ محمد ظفر الله خان من نشرٍ لأحداث حياة والدته ضمن هذا الكتيب لم يكن فقط مجرد طريقة ممتازة لأداء واجب الابن تجاه أمه، بل قدم أيضًا خدمة جليلة للجماعة الإسلامية الأحمدية؛ فمثل هذا الكتاب يمكن أن يساهم في تعزيز المُثل الأخلاقية والروحية للجماعة بفضل الله تعالى، ولأجل ذلك فأنا على ثقة بأن جميع أصدقائنا سوف يقرؤونه وسيحثّون أفراد أسرهم على قراءته أيضًا، بحيث تتملكهم جميعًا الرغبة في إنشاء علاقة حقيقية وصادقة مع الله تعالى للبرهنة عمليًا على أنهم آباء أو أبناء جيدون، وهذه هي الصفة البارزة لهذا الكتيب.

رحمها الله ورحم زوجها الراحل، ومكّن ذريتهم وإيانا جميعًا من تكريس حياتنا للفوز برضا الله تعالى بخدمة دينه وخلقِه، آمين".

★ "تشودري" هو اسم العائلة ويطلق عادة على كبار مُلاّك الأراضي في الفنجاب بالهند. الناشر

لقد نال الكتيب شعبية كبيرة، وكان لا بد من طباعته عدة مرات. والجدير بالذكر أن نسخة من هذا الكتيب قد وصلت صدفةً إلى زعيم على الحدود الأفغانية، لا يرغب في أن يُذكر اسمه، وقد ترك الكتيب لديه انطباعًا عميقًا، فقام بطباعة ألف نسخة منه على حسابه لتوزيعها مجانا، وألحقَ بالكتيب المقدمة التالية:

"حصلتُ على كتيب "والدتي" في كراتشي حين أعارني صديقٌ نسخة منه، ولقد سُحرت بهذا الكتيب، فقرأته مرارا، وعزمت على أن لا أتخلى عنه. لكن صديقي أصرّ على استعادته، فأعدته إليه على مضض. ثم أخذت بالبحث عن هذا الكتيب عاما كاملا، إلى أن أعارني صديق آخر نسخةً منه، فقمتُ بطباعة ألف نسخة منه، فأعطيتُ صديقي ثلاثمائة نسخة منها مقابل تلك التي أعارني إياها، حتى يتمكن من إعطاء نسخة مجانية إلى أيٍ من أصدقائه ممن يرغبون بقراءته.

ولما كان غرضي الوحيد أن أجعل الكتيب متاحًا مجانًا لأجل المنفعة العامة، لا للتجارة، لذا لم أرَ ضروريًا الحصول على إذن صاحب الكتيب لأطبعه وأنشره، مع أنه يجب الحصول على هذا الإذن لإعادة النشر عادةً. وحيث إني لا أسعى لإرضاء الطائفة الأحمدية، ولا أريد أن تُساء سمعتي بين غير الأحمديين، لهذا فإنني لا أريد إظهار اسمي.

النسخة المطبوعة من هذا الكتيب هي طبق الأصل تماما، وقد قمت

بتذييل مقدمة موجزة عن الكاتب والكتيب فقط. لقد قدم تشودري محمد ظفر الله خان، وزير خارجية باكستان، في هذا الكتيب المعنون باسم "والدتي" نبذة ممتازة عن حياة والدته، ومع أنه ليس لدي علم ولا قدرة على تقييم هذا الكتيب، بيد أني قرأته مرارًا، ووددت أن أسجل الانطباعات التي تركها في داخلي.

قد يسأل أحد هنا: لماذا أجد لزامًا عليّ إعطاء مزيد من الدعاية لهذه الدرة النادرة؟ إن كل قارئ لهذا الكتيب سيكتشف الإجابة على هذا السؤال بنفسه. هذا الكتيب ليس نبذة عن حياة سيدة أحمدية، أو شخص أحمدي، وإنما هو لؤلؤة لا تقدَّر بثمن للحياة الأسرية لكل مسلم سواء كان أحمديا أو غير أحمدي، وهو في الوقت نفسه، نافع للمتعصبين من غير الأحمديين، وللأحمديين أيضًا، لِما فيه من فائدة غير محدودة، مما جعلني أغامرُ لجعله متاحًا بالمجان لكل الباحثين عن المعرفة.

أنا لا أدّعي أي جدارة أدبية، ولكني تجرأت فقط على كتابة دوافعي القلبية بلغة بسيطة؛ فهذا الكتيب هو مرآة للتضحية بالنفس واحترام الذات والشجاعة والنـــزاهة والثقة بالله تعالى والتمسك بالقيم الإسلامية مِن قبل سيدة محجبة، وإن كل امرأة مسلمة يمكنها أن تتعلم منها كيفية التصرف.

النساء بصفة عامة عرضة للخرافات، وقد حطمَت الهندوسيات الرقم

القياسي في هذا الصدد، ولا تختلف المرأة المسلمة في الهند وباكستان كثيرًا عنهن في ذلك، وذلك بسبب تأثرهن بهن؛ فمن أجل حرصهن على الفوز بتاج الأمومة فإنهُنَّ يلجأن إلى أنواع الممارسات الوثنية كالسحر والتمائم والطواف بقبور الصالحين، وحرق الزبدة مكان زيت المصابيح، والنوم على الأرض دون فراش وغيرها. وفي هذا الكتيب نقرأ عن موقف والدة ظفر الله خان تجاه امرأة هندوسية اسمها "جَي ديوي" تطلق على نفسها اسم الساحرة، والتي ادعت أنها أودت بحياة اثنين من أطفال والدة ظفر الله خان الرضَّع واحدًا تلو الآخر. حاولت "جَي ديوي" باستمرار ابتزاز هذه الأم، ولكنها كانت ثابتة في رفض كل اقتراح يؤيد الخرافة أو يدل على نقصان في الإيمان بوحدانية الله تعالى.

لقد كانت تتمتع بعاطفة إنسانية عميقة؛ ويتضح ذلك من خلال اهتمامها الكبير باثنين من "الأحرار"، وهم جماعة معروفة جدًا بعدائها واضطهادها للأحمديين. وفي إحدى المرات انتقدت بشدة "ميان جمن"، خادمَ الأسرة المخلص لسعيه إلى ردعها عن تقديم الخير لأحفاد شيخ مُعادٍ من "حزب الأحرار". وفي حادثة أخرى قام دائن -تنفيذًا لقرار المحكمة- بمصادرة ماشية فلاح أحراري من مُعادي الأحمدية، فقامت والدة ظفر الله خان بدفع المال المستحق للدائن وإعادة الماشية للفلاح. إن مثل هذه المواقف هي ما يميز الإسلام عن غيره من الأديان في العالم. باختصار، فإن تعاطفها الصادق تجاوز الخلافات الطائفية والمذهبية

والانقسامات ليحوي الإنسانية فقط.

كنت لا أؤمن كثيرًا بالرؤى ولا أعيرها أي أهمية؛ لكن رؤاها الواردة في هذا الكتيب والتي تحققت بشكل ملحوظ اضطرتني إلى إعادة التفكير في موقفي تجاه الرؤى، فصرت على قناعة تامة بأن الله تعالى يمنّ على الصالحين الذين لهم علاقة وثيقة به سبحانه بعلم أحداث المستقبل من خلال الرؤى الصادقة.

مثال تعاطفها الكبير مع الآخرين ما جاء في الكتيب أنها رأت امرأة ريفية تتألم وحاولت معرفة سبب ألمها، فوجدت أن مسمارًا حديديًا طويلا قد توغل في قدمها الحافية، فانشغلت والدة ظفر الله خان باستخراج المسمار من قدمها، وحرصت أشد الحرص على تحقيق راحتها.

وفي إحدى المرات تحدثتْ شخصيًا وبشجاعة كبيرة وثقة عالية بالنفس إلى الحاكم العام في الهند بشأن مسألة هزّت قلبها. هذا الحدث يُعتبر بالنسبة لسيدة محجبة لا تحتكّ بالعالم الخارجي مباشرةً، عملاً فذًّا يتسم بجرأة كبيرة، ويذكّرنا بسلوك المسلمين في بداية عهد الإسلام.

باختصار، هذا الكتيب بكامله عبارة عن عبرة وتوجيه وتحذير وعظة، وكل صفحة فيه هي دعوة يجب أن لا تُقرأ عرضًا؛ فهو رسالة لكل امرأة مسلمة، ويجب أن يزيّن طاولةَ أو رفّ مكتبة كل شابة مسلمة.

وعلى كل أسرة مسلمة أن تقتنيه. والنساء اللواتي يعرفن القراءة عليهن أن يقرأنه على مسامع النساء الأميات. ومن واجب الرجال الذين يعرفون القراءة قراءته على مسامع نساء أسرهم الأميات ليبعثوا فيهن الروح التوّاقة لتعزيز القيم الإسلامية. إن هذا الكتاب هو الشعلة المضيئة لكل امرأة مسلمة تأمل في حمل لواء الأمومة.

إنني أعجب كيف أن الجماعة الأحمدية قانعة بالنشر المحدود لهذه الجوهرة الثمينة باللغة الأردية فقط، وكيف لم تنشرها على نطاق واسع بين الجماعات غير الأحمدية، مما قد يزيل الكثير من سوء التفاهم الحالي بين الأحمديين وغير الأحمديين. يجب أن ينشر هذا الكتيب على نطاق واسع باللغة الأردية والباشتونية والفارسية والعربية.

أنا أعترف بقلة مواردي، ومع ذلك فإني قررتُ نشر ألف نسخة من هذا الكتيب على نفقتي الخاصة بين الجماعات غير الأحمدية. وإذا منّ الله تعالى عليّ من فضله بوسائل أخرى فسأعمل المزيد لنشره مجانًا بين القبائل الحدودية؛ فمقدرتي على ذلك تعتمد على فضل الله تعالى.

الخدمة العظيمة التي قدمها تشودري ظفر الله خان إلى باكستان والعالم الإسلامي سوف تسجل بأحرف من ذهب في تاريخ الإسلام؛ فقد كان يشرح بشمولية وإقناع كلَّ جانب من جوانب أي موضوع يُطرح. ولقد ظلّت خطاباته تربك معارضيه وتتركهم عاجزين عن الرد.

يعتقد المفكرون البارزون أنه من المستحيل تحقيق مثل هذه الإنجازات إلا من خلال الدعم الإلهي. وعند قراءة هذا الكتيب أدركتُ أن الطفل الذي تربى في حضن هذه الأم الفاضلة؛ وتغذى من حليبها الطاهر، لا بد أن يمتلك صفاتٍ نقيةً؛ فَمَنْ دعمَتْهُ أدعيةُ أمه المبجلة وتضرعاتها المقبولة لا بد أن يتمتع بالدعم الإلهي".

التوقيع: شخص غير أحمدي على الحدود الأفغانية.

إن تأليف كتيب باللغة الأردية قد فرَض عليّ ضغطًا عاطفيًا قويًا، فمرور الزمن -ثلاثة وأربعين عامًا- لم يهدأ من وجع القلب و لم يخفّف من وطأة فراق والدتي شيئًا؛ رغم استمتاعي بالتواصل بها بطريقة غريبة. لقد واصل الأصدقاء إلحاحهم عليّ برغبتهم في تقديم نبذة عن حياة والدتي باللغة الإنجليزية، لكني ترددت عن الشروع بعملٍ قوامُه الحبُّ خوفًا من أنني لن أطيق تأثيره العاطفي. غير أن بعض الحوادث التي وقعت مؤخرًا جعلتني أشعر باقتراب موعد لقائي بأمي، كما أني أشعر بحساسية وعاطفة في ردود أفعالي؛ حيث يبدو كأني أصبحت غير قادر على كره أحد، كما أنني أجد لديّ حافزا مستمرا لتدفق التعاطف والحب والمودة؛ وكأحد مظاهر هذا الحافز هو سعيي لعرض صورة أمي على أوسع نطاق بالكتابة عن حياتها باللغة الإنجليزية. أشعر أن ذلك واجب عليّ لم أنجزه حتى الآن لعدم توفر الظروف الملائمة، وأشعر أن والدتي سترضى بأدائي لذلك الواجب وإن جاء متأخرًا. أدعو الله تعالى

أن تمكّنني عنايته الإلهية من تنفيذه على النحو الذي يجعلني أفوز برضاه وقبوله تعالى، آمين.

لا أنوي ترجمة حرفية للكتيب المكتوب باللغة الأردية، ولا أن أتقيد بدقة بأسلوبه، على الرغم من استيعاب جميع محتوياته، فمن المرجح أن تكون النسخة الإنجليزية أكمل نوعًا ما ولكن ليس على نحو ملموس جدًا؛ فقد ذكرتُ أمورًا عني وعن والدي على نحوٍ أوسع مما كان يسمح به كتيب اللغة الأردية.

ظفر الله خان

لندن - آب/أغسطس ١٩٨١

خلفيّــة عامــة

أنحدر من عائلة "ساهي جات" من مدينة "دَسْكَه"، في منطقة سيالكوت في باكستان. وقد أحكمت هذه العائلة في وقتٍ من الأوقات قبضتها على المنطقة المحيطة بساهيوال، واستقر فرع عشيرتنا "ساهي" في "دَسْكه" لعدة أجيال، حتى إن بلدتنا أصبحت تعرف باسم "دَسْكَه ساهيان".

كان أجدادنا هندوسيين، ومع مرور الوقت اعتنقت بعض الأسر الإسلام وأصبح البعض الآخر من السيخ، وبقيت عائلتان فقط على الديانة الهندوسية. وكانت غالبية الأسر من السيخ، ففي زمن جدي، تشودري اسكندر خان، كان أكثر من اثني عشر جيلا من أسلافنا من المسلمين، ولكن من المعروف أن سلالة جميع مُلاك الأراضي تنحدر مِن جد مشترك وبينهم علاقة قرابة بعيدة، وبقيت الزراعة المصدر الرئيس للرزق حتى زمن والدي، حيث كان هنالك أربع رؤساء بالوراثة؛ وكان جدي واحدًا منهم خلفه والدي الذي خلفته أنا، ولكني تنازلتُ عن ذلك لأخي الذي استمر في ذلك حتى وفاته عام ١٩٤٧، ثم خلفه ابنه الأكبر.

توفي والد جدي في شبابه تاركًا أرملته وابنين وابنتين. كان الولدان في سن المراهقة، وكان أكبرهما هو جدي الذي أصبح واحدًا من الرؤساء خلفًا لوالده. وقد ازدهرت حياة الأسرة فعاشت في رغد العيش نسبيًا، لكن وفاة والد جدي في سن مبكرة ترك الأسرة عرضة للخطر. كانت والدة جدي امرأة واسعة الحيلة وصمّمت على حماية مصالح أولادها. وبما أن الزعيم الكبير كان من السيخ الذين كانوا يحكمون البلاد في ذلك الوقت، فكان يمتلك القوة، فأراد أن يضع حدًا للزعيم المسلم، جدي، الذي لم يكن قد بلغ عند ذاك إلا سن المراهقة.

كانت المهمة الرئيسة للزعيم جمع الإيرادات المستحقة من أراضي المزارعين إلى الإدارة ودفعها إلى خزانة الحكومة. بدأ الزعيم الكبير بتحريض المزارعين على تأخير دفع إيرادات الأرض مستغلا صِغر عُمْر جدي وعدم خبرته، حتى لا يتمكن جدي من إيداعها في الخزانة في الوقت المحدد؛ وهذا ما كان يعتبر تقصيرًا إلى حد ما، مما سيجعل موظفي الإيرادات يأتونه لمعرفة سبب هذا الإهمال فيفرضوا عليه دفع ضرائب الحكومة.

اقترح الزعيم الكبير القبض على الزعيم الشاب وضرْبه أمام أعين والدته، فلم تكنْ تعدم وسيلة لتلبية متطلبات الحكومة من مواردها الخاصة. وظلت هذه المأساة تتكرر كل ستة أشهر، مما جعل الأم تضطر تدريجيًا لبيع حليها من الذهب والفضة للوفاء بمتطلبات الحكومة، وكان غرض الزعيم الكبير من وراء ذلك أن يجعل الأسرة تضطر لمغادرة

أراضيها والانتقال إلى مكان آخر، وقد نجحت خطته جزئيًا فقط، حيث اضطرت الأرملة التي لا تُقهر إلى بيع جزء كبير من الأراضي، وبالتالي فإن ميراث أبنائها قد تناقص بشكل مؤسف، وخلال ذلك كان ابناها يشبّان.. وكان أكبرهما، الزعيم، قد بدأت تظهر عليه الصفات الأصيلة؛ فقد كان بعيد النظر صامدًا ولطيفًا، وكان يتمتع بحكمة تفوق سنوات عمره. وكان كرم الضيافة صفته المميزة، ولكنهم كانوا يعيشون حياة تقشفٍ لقلة موارد أسرته، ومع هذا فقد ظلّوا يعتنون بالضيوف.

كان جدي يدخل إلى دار الضيافة خُفيةً في وقت متأخر من الليل للسهر شخصيًا على راحة الضيوف. كان متعاطفًا جدًّا مع المنكوبين ويسعى بكل ما أوتي من وسائل للتخفيف من معاناة الناس. وفي صباح أحد الأيام أخبره خادم دار الضيافة أن أحد الضيوف غادر قبل الفجر آخذًا معه بطانية السرير، فأرسل الحارس للقبض عليه، فعاد الحارس ومعه الرجل والغطاء تحت ذراعه؛ ولدى استجوابه قال إنه من قرية تبعد مسافة ثلاثة أميال، وأنه في غاية الفقر ولديه زوجة وطفلان ولا يمتلكون سوى بطانية سرير واحدة لتدفئتهم في ليالي الشتاء الباردة. فلامه الزعيم على ما فعل وقال له: كان عليك أن تطلب معونة بدلاً من اللجوء إلى السرقة. ثم أمره أن يحتفظ بالبطانية، وقدّم له ثلاث روبيات والتي قد تكون جميع ما يملك من مال.

كان جدي ذا نـــزعة دينية وعاش حياة تقية.. يخشى الله تعالى ويتجنب كل أنواع الخرافات والبدع وكل ما من شأنه أن يُشرِك أيَّ

شيء بالله تعالى ولو من بعيد. ومع مرور الوقت ذاع صيته الطيب في المناطق المجاورة لمنطقته، وأصبح اسم اسكندر خان مِن "دَسْكه" مرادفًا للاستقامة والتقوى والإحسان.

كانت زوجته من قرية "داته زيدكا" في منطقة "سيالكوت"، وقد ولدت له ابنين وابنتين، وكان والدي "نصر الله خان" أكبرهما، حيث ولد عام ١٨٦٣. كان جدي طموحًا بمولوده الأول، فأرسله إلى المدرسة المحلية، وبعد أن أنهى دراسته هناك أرسله إلى لاهور المدينة البعيدة لمتابعة دراسته. لقد كان طالبًا مجتهدًا في المدرسة المحلية فحصل على منحة دراسية؛ وهي روبيتان شهريًا، وقيل له إن عليه أن يعيش في لاهور من المنحة الدراسية ومن كمية محدودة من دقيق القمح يستطيع أن يخبز منها ما يكفي لسد رمقه. وقد سمعتُه ذات مرة يقول إنه خلال سنوات الدراسة الست في لاهور لم يأكل ما يكفيه من الخبز البتة.

كانت محطة سكة الحديد الأقرب لمدينة "دسكه" من أجل السفر إلى لاهور تقع في غوجرانوالا، وهي تبعد عن دسكه ١٤ ميلا. كان والدي في كثير من الأحيان يقطع هذه المسافة ماشيًا حاملا معه صرة من الكتب الثقيلة والممتلكات الشخصية، ولكي يوفر فلسًا من أجرة القطار كان يشتري التذكرة من غوجرانوالا إلى "شاهدره"، ثم يمشي الأربعة الأميال الباقية إلى منــــزله الواقع قرب المسجد الملكي.

تابع دراسته بجدٍ في "مدرسة نارمل" ثم في مدرسة القانون والكلية الشرقية، وظلّ يحصل على المنح الدراسية في كل المراحل، وكانت المبالغ

ترتفع من مرحلة إلى أخرى من ٤ إلى ٦ و٨ روبيات شهريًا. لم تكن الإنجليزية تُدرَّس بعد في المدرسة المحلية، وقد تابع والدي دراسته في لاهور باللغة المحلية؛ وهذا ما فرض عليه عائقًا شديدًا عندما بدأ بدراسة القانون؛ لأن بعض الكتب المدرسية لم تكن متاحة إلا باللغة الإنجليزية. وفي إحدى المرات سافر بعيدًا جدًّا إلى مدينة هِسار، حيث كان يعيش "لاله لاجبت راي" الذي كان محاميًا يجيد اللغة الإنجليزية وكان قد عرض عليه أن يدربه مشكورًا. لم تكنْ سكة الحديد في ذلك الوقت تصل هِسار. ورغم عائق اللغة الإنجليزية قد تصدّر قائمة الناجحين في امتحان القانون في كلتا المرحلتين، وقد فاز بالميدالية الفضية والميدالية الذهبية على التوالي في منافسة مع المرشحين المتوسطين باللغة الإنجليزية. وقد أهّلتْه كفاءته في الامتحان الأول، في إطار النظم السائدة في ذلك الوقت، لممارسة القانون في المحاكم التابعة، وبدأ بممارسة القانون في دسكه، وعندما اجتاز امتحان القانون النهائي انتقل إلى سيالكوت واستقر هناك كمحام كامل الأهلية، وفي تلك المرحلة بدأ بتعلم الإنجليزية واكتسب فيها مقدرة كافية مكَّنتْه من إنشاء مكتبة من الكتب والتقارير القانونية باللغة الإنجليزية.

وكان والدي قد تزوج بـــ "حسين بي بي" وهي الابنة البكر لخاله الأصغر تشودري إلهي بخش في "داتا زيدكا" حين كان طالبا في لاهور، وكانا بسن متقاربة حيث كانت والدتي تصغره بعشرة أيام. وجرت

مراسم الزواج عندما كانا بين السابعة عشرة والثامنة عشرة من عمْريهما.

كانت والدتي من أسرة تنعم برغد العيش نسبيًا. كانت الطفلة الكبرى للشقيق الأصغر لرب الأسرة، فقد كانت المفضلة لدى الجميع، وكانت تتدخل في كل شيء. كان عمّها، رب الأسرة، يُقدِّرُها جدًّا، وكان لديه ابن وابنتان، ولكن ابنة أخيه البكر كانت المفضلة لديه. وقد رزق أهلها بعدها بثلاث بنات، ثم ابن ثم ابنة. كانت والدتها امرأة تقية تتمتع بروحانية عالية، وقد هيّأ لها والدها تعليم مبادئ علم علاج أمراض الأطفال عند أحد الأطباء، وقد تعلمت والدتي ذلك إلى حدٍ ما من والدتها.

وقد انتهت بالزواج حياةُ والدتي السعيدة والرغيدة التي عاشتها في منـــزل والديها، فقد كان زوجها ما يزال طالبا عندما انتقلت للسكن بمنـــزل أهله، وكان بعيدًا عن المنـــزل معظم الوقت. فكان والد زوجها يقدرها كثيرا ويدللها ضمن حدود موارده، لكنها كانت مصممة على التأقلم مع حياة تقشّف أسرةِ زوجِها من كل النواحي، فلم تطلب أي شيء لنفسها، وحتى عندما عرضت عليها والدة زوجها شيئًا قائلةً: هل تريدين بعضًا من هذا؟ رفضت بأدب قائلة: "لا، سيدتي، لا يهمّني كثيرًا" رغم أنها لو أعطتها ذلك الشيء دون طرح السؤال لقبِلَتْه بامتنان.

وقد ساعدت في الأعمال المنـــزلية بشغف، و لم تتهرب أو تتملص من شيء، فكانت تنهض مبكرًا في الجزء الأخير من الليل وتطحن الذرة على رحى يدوية مدة ساعتين قبل أن يُسمع أذان الفجر من المسجد.

كانت تزور والديها لفترات قصيرة عندما كانا يدعوانها، ولكنها لم تكن تمكث عندهما طويلا، رغم أن الحياة معهما كانت فاخرة مقارنة مع حياتها في دسكه. لكنها كانت تعرف واجبها، وكانت راضية بذلك.

اختبار الإيمان

ملأ قدوم مولود ذَكَرٍ جميل قلبَ أُمّي فرحًا، ففاض بالامتنان الكبير لله تعالى مانح الخيرات والنعم كلها؛ فقد جعل مولودها الفتراتِ الطويلةَ من غياب زوجها عن البيت أمرًا يُحتمل بسهولة أكبر، وقوّى العلاقة بينهما، وسُمِّيَ المولود "ظفر" الذي احتلّ مِن أول يوم المقامَ الأول في قلب جده المبتهِج.

لقد كان ظفر نورَ عيني والديه، وقد ملأ حياتهما بأشعة الشمس المشرقة، رغم أن أحدهما ظلّ بعيدًا عن الآخر معظم الوقت، فأحدهما في لاهور، والآخر (هي) تضع ظفر في حضنها.

كان عمر ظفر أشهرا قليلة عندما ذهبت والدته لزيارة والديها في "داته زيدكا"، ففرح والداها اللذان أُولعا بحفيدهما الصغير الجميل. وكان في القرية أرملة هندوسية تدعى "جَي ديوي"، وكانت مشهورة بأنها ساحرة، وقد استغلت هذه السمعةَ السيئة لابتزاز النساء الجاهلات اللواتي يؤمنّ بالخرافة. وبعد يوم أو يومين من وصول والدة ظفر، مرّت بها "جَي ديوي" مرحبةً بها وطلبتْ منها بعض الملابس والمؤن بلهجة فيها تهديد. فردتْ عليها والدتي: أنت أرملة فقيرة، فإن كنت تسألين صدقةً أو برًّا فسأكون سعيدة بمساعدتك قدر وسعي، ولكني لا أؤمن بالسحر أو الشعوذة، إنما أؤمن بأن الله وحده هو مالك الحياة والموت، ولا

أعترف بمن سواه، وأعتبر مثل هذه الادعاءات تجديفًا ممقوتًا، ولستُ مستعدة لأعطيك أي شيء على هذا الأساس. فردت جَي ديوي: الأفضل لك أن تفكري مرة أخرى فإذا كنت ترغبين أن يعيش طفلك فعليكِ الامتثال لطلبي.

وبعد أيام قليلة كانت والدتي تغسّل ظفرًا، فجاءت "جَي ديوي" وقالت مشيرةً إلى الطفل: هل هذا هو "الأمير من أسرة "الساهي" إذًا؟ فأجابت والدته: نعم. فكررت جَي ديوي طلبها السابق، ولكنها تلقّتْ نفس الإجابة من والدتي، فشعرتْ بشيء من الإهانة وقالت: حسنًا، إذا بقي طفلك على قيد الحياة فأنا لست بساحرة إذًا. ثم غادرت والغضب يتطاير منها. فأكدت لها والدة ظفر: لن يكون إلا ما شاء الله. و لم تكد "جَي ديوي" تصل الباب الخارجي حتى بدأ ظفر الذي كان لا يزال يغتسل بالتقيؤ وتبرّزَ الدم، وفقد وعيه في غضون دقائق، ثم توفي بعد ساعات. فتضرعت والدته إلى الله تعالى: اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ ولا مُعطِيَ لما منعتَ. إنا لله وإنا إليه راجعون. لا حول ولا قوة إلا بالله. اللهم ألهِمْني الصبر. ثم عادت إلى "دَسْكَه" ثكلى.

بعد سنة أو سنتين من ذلك الحدث رُزقتْ أُمّي مولودها الثاني، رفيق، الذي كان أحلى وأجمل من ظفر. فقال جده لوالدته: ليس من الحكمة أن تزوري "داته زيدكا" إلى أن يكبر رفيق قليلا ويستطيع الانفصال عنك. فبقيت في "دسكه" حتى بلغ رفيق سنتين من العمر تقريبًا، فتوفي أحد أقاربها فكان عليها الذهاب إلى "داته زيدكا" لواجب التعزية،

فاقترح جدُّ رفيق ألاّ تأخذه معها، ولكنها لم تطِقْ البعد عنه، فسمح لها جده بأخذه معها شريطة أن لا تطول زيارتها أكثر من أسبوع أو عشرة أيام.

بعد يومين من وصولها إلى "داته زيدكا" جاءتها "جَي ديوي" وكررت طلبها، ولكن والدة رفيق ردت عليها بنفس الرد، فاحتجّ والدها على ذلك وحثّها على الامتثال لطلب "جَي ديوي" حيث إن المسألة لا تتعدى إعطاءها أشياء لا تزيد عن روبيات، وإن لم تكن قادرة على ذلك فسيقوم والدها بذلك. فقالت: ليست القضية أشياء لا تزيد قيمتها عن بضعة روبيات، ولكن القضية هي صدق إيمانها بالله تعالى، فكيف يمكن لها أن تعترف بأن امرأة عاجزة فقيرة تستطيع التحكم بحياة طفلها؟ إن هذا يكون تجديفا فاحشا؛ فطفلها سيعيش إذا منحه الله الحياة، وإلا فلن يستطيع أحد إبقاءه حيًّا، وإنها لن تعرّض إيمانها للشبهة سواء أعاش الطفل أو مات.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام من ذلك سمعتْ في منامها صوتَ امرأة تندب أن "جَي ديوي" قتلتْ طفلها بنـــزع كبده، وأن أحدًا لم يوبخها على جريمتها النكراء، ولو أن هذه المصيبة ألـــمّتْ بأحد أصحاب المناصب لطردوا الساحرة من القرية، فنبهتها والدةُ رفيق في الرؤيا قائلة: إن الحياة والموت بيد الله تعالى وليس لجَي ديوي أي علاقة بالأمر، وقد عانى طفلي على نحو مماثل، لكني لم أُلُمْ "جَي ديوي" بشكل من الأشكال. وحين أنهتْ تعليقها هذا لاحظتْ في رؤياها كما لو أن نافذة فُتحت من

أحد الجوانب وظهر وجهُ جَي ديوي في النافذة، وقالت لها: إذا بقي طفلك حيًّا هذه المرة أيضًا فلن أكون ابنة "كهَتْري" بل ابنة كنّاس◆.
وقد أرعبها هذا التهديد، فاستيقظت مذعورة، ولاحظت أن المصباح قد انطفأ عندها. فنادت والدتَها، فأتت وأضاءت المصباح. فلاحظت أن رفيق قد تقيأ وتبرّزَ الدم وفقد الوعي. فانتابها قلقٌ بالغ بأنه لو توفي بعيدًا عن منـــزل جده الذي لم يسمح لها بأخذه معها فلن يغفر لها ذلك أبدًا، وستصبح حياتها بائسة في "دسكه"، فتوسلتْ إلى والدتها أن تُعِدَّ الترتيبات اللازمة لسفرها فورًا إلى دسكه التي تبعد مسافة اثنين وعشرين ميلا. وقد تم إسراجُ فرسيْن للأم وابنتها، وكان رفيق في حضن والدته، وقد رافقهما اثنان من الخدم في هذه الرحلة الحزينة. كان الليل لا يزال مخيمًا، وعندما بدأ الفجر بالانبثاق لاحظت والدة رفيق أنه لا يوجد فيه

◆ تقسم الديانة الهندوسية أتباعها على أربع طبقات: ١- البراهمة: وهم الذين خلَقهم الإله "براهما" من فمه - كما يزعمون -: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر (أو "كَهْتري"): وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدّمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الوَيش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشُودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعملُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة مثل تنظيف الشوارع والمراحيض. (المترجم)

أية علامة للحياة، فأدركت أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكنها كانت تؤمن إيمانًا راسخًا بأن الله تعالى قادر على منحه المزيد من الحياة، فألقت اللجام على رقبة الجواد ورفعت يديها في ابتهال وتضرع إلى الله تعالى وقالت: اللهم إنك تعلم أن ما يحزنني ليس مشهد وفاة ولدي؛ فأنت مَن مَنَحْتَه الحياة، وإن جاء أجلُه فإليك سيعود؛ وأنا قانعة تمامًا بمشيئتك، ولكن ما يحزنني أكثر هو مستقبلي؛ فلو توفي ابني الآن فلن يكون لي بعدها أي مستقبل في "دسكه". ويا أرحم الراحمين، أنت مالكُ الحياة والموت، فاستجب لابتهالي المتواضع وامنحْ ابني مهلة عشرة أيام. أتوسل إليك ربي أن تستجيب دعائي هذا حتى يستمتع جدّه بالمرح معه، وبعد ذلك إذا سرّك استدعاؤه إليك فلن أطلق أي تنهيدة على موته ... واستمرتْ تدعو بذلك فترة لا تذكر طولها بالضبط إلى أن شعرت بابنها "رفيق" يسحب حجابها ويدعوها (ماما) بصوت ينم عن صحة وعافية. فأدركت أن الله تعالى قد استجاب دعاءها، فامتلأ قلبها بالامتنان للخالق سبحانه وتعالى.

أعربَ والدُ زوجها عن سعادته بعودتها المبكرة أكثر مما توقع، وبدأ بمداعبة حفيده الصغير بابتهاج. ومرّت الأيام بسعادة وهي تراقب طفلها يمرح ويلعب مع جده، فابتسمت مدركة أن هذا تجلٍّ لنعمة الله حيث منح ابنها مهلة قصيرة من الحياة، وعند انقضاء الأيام العشرة ظهرت على "رفيق" نفس الأعراض فجأة، ووافته المنية في غضون ساعات قليلة.

وتحملت الأم الثكلى هذه الخسارة مرتين بثبات، خاضعة لإرادة الله تعالى بإذعان كامل ممتنةً له على استجابته تضرعاتها.

لقد حار بعض قراء الكتيب بالأردية بهذين الحادثين المؤثرين وعاقبتهما حيرة كبيرة، وقد تبدو محاولة تفسير ذلك بكلمةٍ مغامرةً؛ فالحقيقة الأساسية الثابتة هي أن الله تعالى وحده مالِكُ الحياة والموت، تمامًا كما هو مالكُ كل شيء آخر، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(آل عمران:١٥٧)؛ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾(آل عمران:١٤٦). لقد كان إيمان والدتي "حسين بي بي" ثابتًا كالجذر في الصخور، وكانت لا تطيق أي استثناء أو نكوص في ذلك، وكل ما في الأمر أن المؤمن قد يتعرض للمحن حتى يتعزز ثباته ويتألق إيمانه أكثر فأكثر بواقع الحياة المؤلم لا بثرثرة اللسان فقط. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٦-١٥٨)

لقد امتُحنتْ مرارًا وبشدة، ولكن قلبها كان ثابتًا دائمًا وكان فضل الله ورحمته يزيدان من قوة إيمانها. بعض عناصر هذه الدراما الإنسانية يجب أن تُدرَك بشكل واضح، فدور "جَي ديوي" في جزء من هذه الأحداث لم يكن إلا من قبيل الصدفة؛ صحيح أنها ظهرت في حالتي ظفر ورفيق، وكانت تنذر وتهدد بمسّ سلامتهما، ولكن التحدي كان

واضحًا في حالة رفيق كما ظهر في سياق هذا السرد. كما أن كل الإعلانات الأخيرة -مهما كان طابعها- كانت تُنقَل إلى الأم عبر الرؤى وليس عبر "جَي ديوي" التي لم تُمنَع من الزيارة، وكانت تمر على "حسين بي بي" من وقت لآخر كلما عرفتْ أنها قد جاءت إلى "داته زيدكا"، ولم يكن هنالك في أية مناسبة أي تلميح أو إشارة خفية منها شخصيًا[1].

وفيما يتعلق بالرؤى فيجب أن نتذكر أنه لا يمكن لأي إنسان أن يجد وسيلة للظهور في رؤيا الآخر، وهكذا فمن المستحيل لجَيْ ديوي أن تظهر في رؤى "حسين بي بي"، ولكن هذا لا يحل اللغز. إن ظهور "جَيْ ديوي" في رؤاها كان منذرًا لها دائمًا؛ ويبدو أنها كانت تعاني من نوع ما من مرض جسدي معروف بين أطباء التوليد باسم Athra والذي تسبب في وفاة أطفالها في سن مبكر. وصدفةً بدأ ظفر يعاني من أعراض الموت في غضون بضعة دقائق من وقوع عيني "جَي ديوي" عليه متوعدة، أضفْ إلى ذلك سمعتها السيئة.. كل ذلك شكّل لدى الأم عقدة، ونتيجة لذلك فإن اقتراب بداية مرض Athra على الطفل انعكس على عقل الأم في صورة جَي ديوي.

[1] في المرة الثانية هي لم تهدد، بل جاءت تطلب المعونة، ولكن والدة المؤلف لم تستجب لها كيلا يظن أحد أنها تخشاها، خصوصا أن والدها كان خائفا -على ما يبدو- وحثها على أن تقدم لها شيئا. الناشر

الإنذار الذي رأته في حُلمها بحصول النوبة المرضية لـــ "رفيق" كان عن طريق جَي ديوي التي قالت إنها لن تسمح له بأن يعود إلى منـــزل والده حيًّا؛ وهذا يعني أن رفيق كان على وشك أن يعاني من نوبة المرض، وهذا ما حصل بالفعل، ومن شأن هذا النوبة المَرَضية عادةً أن تهلكه في غضون ساعات قليلة، ولكن تضرعاتها الحثيثة إلى الله العلي القدير مالك الحياة والموت استجيبت لإرجاء موته، فوصل إلى المنـــزل سليمًا معافى تمامًا، وكان هذا دليلا واضحا على أن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت، ولا تستطيع جَي ديوي أن تسبب له أي ضرر، وعندما انقضتْ فترة إرجاء الموت تُوفي رفيق وفقًا لقضاء الله تعالى. وليس لجَي ديوي أي علاقة في ذلك.

في وقت لاحق ظهرتْ "جَي ديوي" مرة أخرى في رؤى "حسين بي بي" التي صرخت عندما رأتها: متى ستتوقفين عن ملاحقتي؟ فردت عليها قائلة: سوف آتي بعد ثلاثة عشرة يومًا وسبعة عشر يومًا ثم لن آتي بعد ذلك. في ذلك الوقت كان والدي يعمل مختارًا في "دسكه"، فولدتْ "حسين بي بي" بعد ثلاثة عشر يومًا من حلمها بنتًا توفيت في اليوم السابع عشر من العمر. ويشير تأكيد "جَي ديوي" لها بأنها لن تأتي بعد ذلك إلى أنه مع ولادة الطفلة المنتظرة ووفاتها فإن معاناة الأم الطويلة ستنتهي بفضل الله تعالى، وأنها ستلد بعد ذلك أطفالا لن يعانوا نتيجة ذلك.

كان والدي في ذلك الوقت قد ُعين محاميَ دفاع وانتقل من دسكه إلى سيالكوت وبدأ ممارسة عمله في المحاكم المحلية. وقد أصبح لحسين بي بي بيتٌ خاص بها. كان في بساطته المتناهية إلا أن حياة التقشف قد انتهت، أما الذي لم ينتهِ بعد هو ظهور "جَي ديوي" في أحلامها، حيث حلمت بها ذات مرة، ولكن في اللحظة التي وطئت بها قدمها عتبةَ المنـــزل صرخت بأسى كبير: لقد أُهينت البقرة هنا، فيجب أن لا آتي هنا مرة أخرى؛ وتراجعت مسرعة. أصيبت حسين بي بي بالحيرة؛ فمع أن العائلات المسلمة في المناطق الريفية من البنجاب اعتنقت الإسلام منذ أجيال عدّة إلا أنه بسبب أصولهم الهندوسية كانت تسودهم عادات هندوسية مثل الشعور بالاشمئزاز من أكل لحوم البقر؛ وكان تعجُّبُ جَي ديوي يعني أن أحدهم أكل لحم البقر في المنـــزل، وبالاستفسار عن الأمر اكتشفتْ أنه قد وصل إليهم بعض الضيوف ليلة أمس وقت العشاء وقُدمت لهم الوجبة التي كانت معدّة للأسرة، وأُرسلَ الخادمُ لشراء اللحوم المطهية من المطعم لتقديمه للأسرة، ولما كان الوقت متأخرًا نوعًا ما، فقد كان اللحم المطهي متوفرًا فقط في المطاعم التي تبيع لحوم البقر المنكّهة ببهارات الكاري، فاشترى الخادم جزءا منها وقدمها للأسرة على العشاء، فتناولوه دون أن يدروا أنهم يأكلون لحوم البقر. بعد ذلك ونتيجة للحلم، بدأ لحم البقر يطهى في المنـــزل مرة أو مرتين في الشهر، دون أن يعلم بذلك رب الأسرة. ويبدو أنه كان للحوم البقر دور في شفاء حسين بي بي من المرض الذي كانت تعاني منه.

اقترب موعد ولادة طفل جديد، وعلى الرغم من تناول الأسرة للحوم البقر مرتين في الشهر إلا أن جَي ديوي ظهرت مرة أخرى في حلم الأم وقالت لها أن طفلاً ذَكَرًا سيصل مساء اليوم التالي، وبأنه ينبغي اتخاذ بعض الاحتياطات للحفاظ على حياته؛ وهي أنه عند ولادته يجب ثقب أنفه بإبرة وأن يُدخَل من الثقب شعرةُ جمل وأن توضع أيضًا فتيلة في زبدية مصنوعة من الدقيق، ومسحوق الكركم والزبدة المذوبة، وأنه ينبغي أن يوضع هذا المزيج في أعلى مكان على سطح المنـــزل ويجب أن تشعل الفتيلة عند ولادة الطفل. ذكرت حسين بي بي الحلم لزوجها، وولدت في الموعد المشار إليه في الحلم، وكان ذلك بتاريخ ٦ شباط/فبراير عام ١٨٩٣. وعندما استعادت الأم السعيدة عافيتَها لاحظت أن مواد وُضعت على الطاولة التي بجانب سريرها، وكانت ابنةُ عم والدي تعتني بها، فسألتْها ما هذه المواد؟ قالت لها إنها المواد المذكورة في حلمها. فاحتجت أمي على ذلك وقالت إنها لا تتعامل مع أي نوع من ذلك الهراء. فقالت لها ابنة عم والدي: ولكن ابن عمي (أي والدي) يعتقد أنه لا ضرر في ذلك. فقالت أمي: كلا بل فيه ضرر كبير، فكل هذه خرافات، والله تعالى هو رب الحياة والموت، وإذا كان يريد أن يمنح الحياة لهذا الإنسان الصغير فسوف يعيش، وإذا كان سيدعوه إليه فلا بد أن يموت. لن أعرّض إيماني للخطر بالتورط في أي عمل أحمق. ثم مدت ذراعها الضعيفة وأزاحت كل المواد السخيفة من على الطاولة. وكانت هذه نهاية "جَي ديوي" حسب ما أخبرتْ والدتي.

امتدت الحياة البائسة لتلك المرأة التافهة جَي ديوي عدة سنوات، وكانت منبوذة من الجميع، وعندما كبرت وضعفت لم يكن هناك مَن يرعاها، وكان يصعب عليها شراء الطعام، وفي أيام الشدة هذه لم تتمكن حتى من الحصول على مياه الشرب. وفي النهاية أشعلت النار في غطاء سريرها فماتت حرقًا.

التدريب الروحاني

كان جدي، تشودري اسكندر خان متدينًا تقيًا، وفي عام ١٨٩٧ حج إلى مكة المكرمة، وزار المدينة المنورة أيضًا، وقد دوَّن كامل أحداث رحلته التي كانت في تلك الأيام عسيرة جدًا؛ فقد سافر جدي في قافلة من جدة إلى المدينة عن طريق البحر إلى ينبع، ثم سافر برًا إلى المدينة، وعاد بنفس الطريق. وبعد عودته إلى بلاده قال لجدتي إنه قد دعا لي في كل الأوقات. لم يكن الحج في ذلك الوقت مجرد مشقة جسدية، بل كان يشكل خطرًا جسيمًا على الصحة والحياة، وقد أودى مرض الزحار بحياة العديدين، وبدأ أحد رفاق جدي يعاني من الزحار قبل الوصول إلى مومباي، وتوفي بعد وقت قصير من وصوله إلى الوطن، أما المرافق الآخر فقد بدأت تظهر عليه أعراض المرض بعد فترة قصيرة من عودته للوطن وتوفي بعد أيام قليلة. أما جدي فبقي بصحة جيدة لعدة أشهر بعد عودته، ثم مرض بالزحار وفي غضون بضعة أيام أصبحت حالته خطيرة، فانتاب والدي القلق وداوم على زيارته كل مساء. الطريق من سيالكوت إلى دسكه تبلغ ستة عشر ميلا، ولم تكن معبَّدة بعد، فكان والدي يقود حصانه إلى دسكه بعد ظهر كل يوم بعد انتهاء ساعات عمله في المحكمة، ويعود إلى سيالكوت في صباح اليوم التالي، وكان ذلك في شهر شباط/فبراير، وكانت رحلة العودة خلال ساعات

الصباح الأولى على ظهر الخيل متعبة. وقد استمرت حالة والده بالتدهور، فبقي معه طوال الوقت في آخر يوم.

عندما وصلت برقية خبر وفاة جدي إلى أمي ذات الأطفال الثلاثة، صبيين وفتاة واحدة، غادرتْ سيالكوت على الفور إلى دسكه. لقد كان والد زوجها لطيفًا وكريمًا جدًا معها على الدوام، لذا فقد حطمها الحزن على وفاته. تجمّعَ الأقارب والأصدقاء والمعجبون به والمواسون بأعداد كبيرة في دسكه وحضر الجنازة عدد كبير. ولقد كان جدي نفسه يرفض طقوسَ الحِداد عند الهندوس المتمثلة بالنواح والندب على الميت والتي كانت سائدة بين المسلمين أيضا في المناطق الريفية، ولكنه لم يعد موجودًا الآن لينهى نساء الأسرة، بما فيهن أمي، عن التنفيس عن حزنهن بالعويل. ومع أن الموت يدعو لضبط النفس والكرامة والثبات، بيد أن تجنُّب العُرف والتقليد ليس سهلاً. وبعد فترة قصيرة من وفاة جدي رأته والدتي في المنام يأخذها في رحلة لرؤية بعض المعالم، وكان أول مشهد أراها إياه منظر جهنم حيث كانت بعض النساء يعذَّبْن عذابًا رهيبًا؛ فقال لها إنهن تلك النسوة اللواتي يندبن الموتى، ونبّهها إلى أن معاناتهن ينبغي أن تكون درسًا لها، وأنها يجب أن تتجنب مثل هذه الممارسات. ثم أخذها وأراها قبر النبي محمد ﷺ وقبر ابنته فاطمة رضي الله عنها. وكانت هذه القبور في حديقة جميلة يعلوها نافورة مياه شديدة الصفاء، فغسلت وجهها وذراعيها كما لو أنها تتوضأ للصلاة، واستغفرت الله لذنبها. لم يكن سهلاً عليها أن تمتنع كليًّا عن ندب الموتى ولكنها

صمّمت على ذلك بإخلاص. وحين توفي أحد أقاربها المقربين اشتركت في بعض ممارسات الحداد خوفًا من لوم قريباتها، رغم أنها كانت قد ابتعدت عن الانغماس في هذه الطقوس وكانت تشعر بالاشمئزاز تجاهها.

بعد ذلك رأت عدة رؤى على التوالي أن مجموعة من النمل تتشبث بجسدها، وأنها تبذل جهدها لإزاحتها وإزالتها عنها ولكن دون جدوى، فكلما أزاحت بيدها حفنة منها هاجمتها حفنات، وكانت تستيقظ في منتصف الرؤيا من شدة ما ناضلت، ولكن عندما تعاود النوم يبدأ نفس الكابوس من جديد، وهكذا جفاها النوم المريح. فأدركت أنها تُعاقَب على خرقها عهد التوبة عن الحداد. فانهمكت في الاستغفار وصممت على مقاطعة جميع هذه الممارسات. وبعد أيام قليلة رأت في الرؤيا والدَ زوجها مرة أخرى يوبّخها على تقصيرها وينبّهها إلى ضرورة التقيد بقرارها بتصميم، ثم أعطاها ملاءة نظيفة وأشار إلى بركة مياه صافية وطلب منها أن تستخدم الملاءة كساتر وأن تغسل نفسها في البركة النظيفة. فعندما دخلت البركة وتقدمت نحو المياه العميقة تساقطَ النمل عن جسدها حتى تخلصت منه نهائيًا، وشعرت بارتياح كبير، واستيقظت منتعشة، وشكرت الله تعالى بامتنان كبير على رحمته بها، ووعدته أنها لن تخطئ مرة أخرى أبدًا.

بعد ذلك بوقتٍ قصير وُضعت في الاختبار مرة أخرى؛ فقد تُوفي الابن الأكبر لشقيق والدي الصغير، فلم تستطع أمي الامتناع تمامًا عن المشاركة في طقوس الحداد. وعندما خلدت إلى النوم رأت ثورين لهما

قرون طويلة يطاردانها كأنهما يريدان بَقْرَ جسدها بقرونهما، فركضت مذعورة تبحث عن مأوى، وكان الثوران يدركانها أحيانًا فيوقعان بجسدها بعض الجروح، وهكذا جفاها النوم مرة أخرى؛ فأمضت ليلتها تتضرع إلى الله تعالى بإلحاح شديد طالبة منه الصفح والغفران. وقد أثارت حالتها هذه شفقةَ زوجها عليها، فتضرعَ بقوة هو أيضًا لله تعالى بالنيابة عنها؛ ولكن الحلم المزعج تكرر خلال الشهر كله. وفي النهاية حلمت بوالد زوجها مرة أخرى يوبخها بشدة ويحذرها بأن هذه فرصتها الأخيرة للتوبة ولن يغفر لها أي تراجُع بعدها، ثم أمسك بالثيران، ولكنها لم تتمكن من تجاوزها دون أن تصاب بأذى.

وجاء اختبار إيمانها التالي في وقت لاحق عندما توفي الابن الأكبر لشقيقة والدي الكبرى، وكان شابًا وسيمًا، وقد ذهبت أمي إلى منـــزل أخت زوجها للعزاء، وكان العرف في المناطق الريفية أنه عندما تأتي النساء للعزاء بقريب متوفى تتجمع نساء القرية على أسطح منازلهن للاستماع إلى عويل المعزّيات المرتفع، وفي هذه المناسبة كانت أمي من بين مجموعة أقرباء عمتي الثكلى، وعندما نـــزلن بالقرب من قريتها نبّهتْ أمي صاحباتها أن يمضين بهدوء إلى منـــزلها وأن لا يبدين أي تصرف لإظهار الحزن. وأصيبت المتفرجات بتقدُّمهن الصامت بخيبة أمل، فقالت إحداهن ساخرة: سيداتي، يمكنكن أن تمشين وأنتن تضحكن أيضًا. فسمعن ذلك وتحملن السخرية بصمت، ووصلن إلى منـــزل الحِداد في حالة لا تظهر الحزن، ولم يشتركن بالنحيب أيضًا.

انتشار الطاعون فيما بعد قضى على طقوس الحداد السائدة بين الأسر الريفية، حيث مزّق الوباء البلدةَ لعدة سنوات في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ظلت والدتي تتدرب على القيم الروحية والأخلاقية من خلال الرؤى التي كانت ترى فيها جدي غالبًا. وفي إحدى المرات من عام ١٩٠٣ طلبتْ منه في رؤيا تغيير الروبية الزائفة التي تمتلكها، فأخذها منها وأعطاها واحدة بدلا منها قائلا: هذه هي الروبية الوحيدة التي لدي، اعتني بها جيدًا لأنه مطبوع عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله. ففهمتْ من الرؤيا أنها سترزق بطفل جديد، ولكن ابنها الثالث، حمْد الله خان، الذي كان ضعيفًا إلى حد ما سيموت، وهذا ما كان. فقد وُلد أسد الله خان بعد أشهر قليلة، وبعدها بفترة قصيرة توفي حمد الله خان من الحصبة، فتحمل الوالدان المكلومان هذه الخسارة بثبات يُحتذى به.

الملاذ الروحاني

كان المولوي مبارك علي – وهو ابن المولوي فضل أحمد الذي تشرّف بأن يكون أحد معلمي سيدنا ميرزا غلام أحمد عليه السلام في طفولته- إمامًا ومشرفًا على مسجد الجمعة في معسكر سيالكوت، وكانت هناك أرض زراعية كبيرة تابعة لهذا المسجد، وقد مكّن إنتاج هذه الأرض المولوي مبارك مِن الحفاظ على حسن تنظيم المسجد ومن إعالة نفسه بشكلٍ جيد. وحدث أن انضمّ المولوي مبارك علي إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية في أواخر القرن التاسع عشر، فأُدينَ بشدة من قبل المشايخ المتعصبين بسبب عقائده الخاصة، وأصبح ذلك يقضّ مضاجع أعداد ضخمة من المصلين في المسجد، مما أثار التعصب والعداوة تدريجيًّا. في النهاية رفع عدد من المصلين في المسجد دعوى مدنية ضد المولوي مبارك علي زاعمين أنه قد أصبح كافرًا بسبب انضمامه إلى الجماعة، وأنه لم يعُدْ كفئًا للعمل كشيخ أو كإمام لمسجد. ولم يكن هنالك في ذلك الوقت محام أحمدي في سيالكوت، وكان والدي قد وُكّل محاميًا للمدَّعى عليه، فاضطر بحكم الضرورة لإعداد دراسة شاملة للأسئلة المذهبية التي طرحها المدعون لدعم ادعائهم أن الأحمدي لا يمكن اعتباره مسلمًا، فوجد والدي نفسه متعاطفًا مع آراء الأحمدية. وهناك مسألة أخرى أثّرت فيه تأثيرًا عميقًا؛ وهي أن المدّعين وشهودهم لم يترددوا في الكذب

أو المراوغة عند استجوابهم إذا رأوا بأن الصدق قد يمس قضيتهم، رغم أنهم أدلوا بشهاداتهم بعد أداء القسم، في حين أن المدَّعى عليه والشهود الأحمديين تقيدوا بدقة بقول الحق بغض النظر فيما إذا كان هذا سيؤثر سلبًا على نتيجة القضية، فشعر والدي بأن المعايير الأخلاقية العالية الواضحة للعيان كانت مؤشرًا على مدى صدقهم. وكانت النتائج التي توصّلَ إليها القاضي في صالح المدَّعى عليه ورُفضت الدعوى. استأنف المدَّعون حُكْمَ القاضي الذي ثبّتته محكمة الاستئناف، فرُفض استئنافهم أيضًا. هذه الدعوى القضائية جعلت والدي يميل جدًا نحو الأحمدية. وفي وقت لاحق استدعيَ والدي للمثول في محكمة الحاكم في غورداسبور شاهدَ دفاعٍ في قضية جنائية كان حضرةُ ميرزا غلام أحمد عليه الصلاة والسلام مؤسسُ الجماعة الأحمدية يحاكَم فيها بتهمة تشويه سمعة المولوي كرم الدين، وهو من أشد معارضيه. هذه المحاكمة أتاحت لوالدي فرصة للقاء تلك الشخصية الفذة، وقد أعجب كثيرًا بشخصيته الكريمة وبروحانيته العالية جدًا. فبدأ يبحث في أمر الجماعة الإسلامية الأحمدية بحماس، وأصبح مشتركًا دائمًا بجريدة "الحَكَم" الأسبوعية، وبدأ يحضر يوميًّا درس القرآن الكريم الذي يلقيه المولوي عبد الكريم الصحابي البارز للمسيح الموعود عليه السلام. لم يكن والدي في أي وقت من الأوقات معارضا للجماعة الأحمدية، لكنه اتبع سبيل التفكير المدروس وعزم على أن يتخذ قراره بعد تفكير دقيق وعميق.

في ذلك الوقت كان والدُ أمي وشقيقُها قد انضمّا إلى الجماعة

الأحمدية، ولكن أمي كانت لا تعرف سوى قدر قليل عنها، ثم في ربيع وصيف عام ١٩٠٤ رأت مجموعة من الرؤى التي كان لها كبير الأثر عليها، وفيما يلي تلخيص بعض هذه الرؤى:

لقد رأتْ أن هناك صخبًا كبيرًا في الشارع، وكان الناس يرتَدُون أفضل ملابسهم، وكانوا جميعا يسيرون في نفس الاتجاه، ففهمتْ أنهم كانوا في طريقهم لمشاهدة مشهد مهيب، فقالت لزوجها: دَعْنا نذهبْ أيضًا في سيارتنا، فوافقَ على ذلك. وبينما كانوا في طريقهم نادى على والدي المحامي تشودري محمد أمين مِن منـــزله، فعاد أدراجه لمقابلته، فتابعتْ أمي بمفردها إلى سهل واسع حيث تجمّعَ الناس. كان هنالك حشد هائل من الناس الذين تشبّثَ بعضهم بفروع الأشجار، وكان هناك فضاء مفتوح في الوسط علِّق فوقه مَهْدٌ تحمله حبالٌ تصل إلى السماء، وشعرتْ أن هناك طيفًا في المهد لم يكن واضحًا للعيان، وعلى جانب السهل كان هناك مجموعة من المقاعد وكان اثنان منها شاغريْن، فذهبتْ وجلست على أحدهما وحجزت الآخر لزوجها الذي كان من المتوقع أن ينضم إليها قريبًا. فبدأ المهد يتأرجح من الشرق إلى الغرب ثم إلى الخلف، وكان يشعّ نورًا، وكلما تأرجح ازداد إشعاع النور منه، وكلما تأرجح المهد في أي اتجاه صرخ الناس على ذلك الجانب بابتهاج: مرحبًا برسول الله .. مرحبًا برسول الله. وفي نهاية المطاف تأرجح المهد على امتداد أصقاع الأرض جميعها. وكان هذا الكشف تجربة روحية ذات فحوى هامة، إنها تبشّر بعدة أحداث سوف تظهر في سياقها

المناسب.

بعد ذلك بفترة رأتْ في الرؤيا كما لو كانت على وشك الذهاب إلى مكة المكرمة في الساعات الأولى من الصباح. ثم شعرتْ أنها تسافر على إيكا –وهي عربة مريحة يجرها حصان كانت تُستخدم على الطرق المُتْرِبة في تلك الأيام – وعند منتصف النهار أوقف السائق الإيكا قرب شجرة تين البنغال، فقالت له إنها تريد الذهاب إلى مكة المكرمة، فأجابها أنها قد وصلت إلى مكة المكرمة. فاستغربتْ من أن الرحلة تمت في حوالي اثنتي عشرة ساعة فقط، فترجَّلت من العربة وسارت في شارع ضيق أفضى بها إلى منـــزل، فصعدت إلى الطابق الأول، فشاهدت هناك مقعدًا خشبيًّا وُضع عليه سجل كبير وصندوق مفتوح الغطاء، فوضعتْ يديها حول الفتحة وانحنت قربها متضرعة إلى الله تعالى ثلاث مرات في صوت مسموع: يا رب اغفر لي ذنوبي. ثم تساءلت: هل ستغفر لي ذنوبي؟ فتلقّت استجابة واضحة وصارمة: أنا أرحم الراحمين، وسوف أغفر لك فاسمك مدون في هذا السجل. فتخيّلتْ "في منامها" أن هذا السجل يحتوي على تسجيل الولادات والوفيات، وتساءلت ما إذا كان حارس القرية الذي كان مسؤولا عن تسجيل الولادات حين وُلدتُ قد سجّل ولادتها.

بعد ذلك بوقت قصير سنحت لها الفرصة لزيارة "داته زيدكا"، فذكرتْ رؤياها إلى والدها الذي فسر لها بأن ما رأته كان يشير إلى أن قاديان كانت ضالتها المنشودة، وأن عليها أن تبايع حضرة الميرزا. فردت

قائلة إذا كانت هذه الشخصية الفاضلة التي يشير إليها بالفعل مبعوثًا من الله تعالى فإنها بالتأكيد ستتشرف برؤيته وأن الله تعالى سيكشف لها الحق بطريقته الخاصة.

بعد ذلك رأت في منامها أنها كانت مشغولة في بيتها في مساء أحد الأيام في إعداد الترتيبات اللازمة لاستقبال عدد كبير من الضيوف، ولاحظتْ فجأةً توهُّجَ ضوء في غرفة تقع إلى الغرب، ففوجئت بذلك، لأنها لا تذكر أن هنالك مصباحا في تلك الغرفة. فتقدمتُ إلى الغرفة، فوجدتها مضاءة جدًا، ورأت فيها شخصا جليلا ذا طلعة مشرقة جالسًا على أريكة ويكتب في دفتر ملاحظات. فمشتْ بصمتٍ باتجاه ظهره كي لا تزعجه، لكنه لاحظ أن أحدًا قد دخل الغرفة، فتحرّكَ على الأريكة كأنه يهمّ بالرحيل. فتوسلتْ إليه أن يبقى فترة أطول لأن وجوده غمَرها بفرح يفوق الوصف. فبقي هنيهة وعندما كان على وشك الرحيل غامرتْ وسألتْه: سيدي، إذا سألني أحدهم مَن هو صاحب الشخصية الموقرة الذي قابلتِه، فماذا سأقول؟ فاستدار ينظر إليها مِن فوق كتفه الأيمن رافعًا ذراعه اليمنى وقال: إذا سألك أحدهم هذا السؤال قولي له لقد التقيتُ بأحمد.

وعندما أخبرتْ زوجها عن الرؤيا قال: إن أحمد هو اسم من أسماء الرسول الكريم، ولربما قد حظيتِ برؤيته ﷺ. فأجابته: ليس لدي هذا الشعور. أشعر بأنه شخصية معاصرة، ويريد اللهُ تعالى أن يرشدني بواسطته.

وعندما سمع شقيقها رؤياها قال: بالتأكيد قد رأيت حضرة الميرزا. قالت: لكنه لم يقل لي إنه حضرة الميرزا، بل قال إنه أحمد. قال: اسم حضرة الميرزا هو غلام أحمد، وأنت على الدرب الصحيح، فاستمرّي بالتضرع إلى الله تعالى حتى تتجلى لك الحقيقة بوضوح.

أُعلنَ أنه في ٣ أيلول/سبتمبر، ١٩٠٤ ستُلقى على الملأ محاضرة للمسيح الموعود عليه السلام في لاهور وسيلقيها في حضوره المولوي عبد الكريم. فذهب والدي إلى لاهور للاستماع إلى المحاضرة، ومِن حسن حظي أنه اصطحبني معه. لقد شعرتُ بالهيبة منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي على طلعته المباركة المقدسة، وطوال فترة قراءة المحاضرة كانت نظراتي المفعمة بالإعجاب لا تفارق وجهه المضيء، واخترقتْ حقيقةُ صدقِه عقلي وروحي وشعرت بأنني مرتبط بحضرته ارتباطًا تامًا. لقد كنت حينها تلميذ مدرسة في الثانية عشرة من عمري فقط، ولكني كنت مقتنعًا بأن الله تعالى قد منحني هذه الفرصة مِن وافر نعمته.

وصلت الأنباءُ أن المسيح الموعود عليه السلام سوف يزور سيالكوت في نهاية تشرين الأول/أكتوبر. حلمتْ أمي بأنها تمشي عبر بعض الشوارع، ومرت عبر ممر ضيق مسقوف أفضى بها إلى منـــزل، فرأت في الطابق الأول مرة أخرى تلك الشخصيةَ المحترمة التي قابَلَتْها في الرؤيا من قبل، فاستفسرها عما إذا كانت قد آمنتْ فأجابته: آمنتُ، والحمد لله.

وصل المسيح الموعود عليه السلام مع أفراد أسرته وعدد قليل من أتباعه إلى سيالكوت مساء يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر. كان قدومه حدثًا

هائلاً، وكان هناك حماس كبير في المدينة، وتجمّعَ حشد هائل خارج محطة السكة الحديدية. اتخذت السلطات ترتيبات خاصة من أجل حماية أمنه وأمن مرافقيه أثناء سفرهم من محطة القطار إلى مسكنهم. ذهب والدي برفقة تشودري محمد أمين إلى محطة القطار لمشاهدة وصول الزائر الكبير، وقد رافقتُهم أنا أيضًا، ولكن لم نستطع أن نلمح من مركبتنا إلا تدافُعَ الحشد الهائل المتجمع خارج المحطة، وشرح لنا خالي فيما بعد بعض الأحداث التي حصلت في طريق التقدم البطيء لعربات الوفد القادم عبر الشوارع المزدحمة لأنه قد شاهد تفاصيل ذلك.

وفي صباح اليوم التالي عندما كان والدي على وشك الذهاب إلى المحكمة سألتْه أمي عما إذا كان يسمح لها أن تذهب لتزور زائر البلدة العظيم لترى إنْ كان هو نفس الشخص الموقر الذي رأته في رؤاها. فقال والدي: اذهبي بكل تأكيد واستطلعي الأمر ولكن لا تبايعيه. فردّتْ عليه: إذا كان هو نفس الشخص، فسأكون مذنبة في إهمال قدر الله؛ فكيف سأتراجع بعد التوجيهات الواضحة التي هداني الله تعالى إليها؟ قال لها: إنها قضية مصيرية وأنا لا أرغب في أن نختلف عليها، وكما تعلمين فأنا أدرس هذه المسألة وعلينا أن نناقشها معًا وآمل أن نصل إلى نفس القرار. قالت: أنت شخص متعلم وأنا أمية، ولكنني أشعر أن الله بفضل منه قد تولّى توجيهي بطريقته الخاصة، وإذا رأيتُ أن الله تعالى يوجهني لمبايعة الميرزا فسأفعل وفقًا لتوجيهات الله سبحانه وتعالى التي لا ينبغي أن أتصرف بما يخالفها، وسأكون سعيدة بمناقشة الأمر معك حتى نتمكن من

التوصل إلى قرار معًا. قال والدي: إذا أخّرتِ البيعة قليلا لن يضر ذلك بشيء، لأني أخشى أن نجد أنفسنا على طرفي نقيض في خلاف أساسي. قالت: ذكرتُ لك أحاسيسي.

ثم غادر والدي. والله وحده يعلم مدى معاناة روح والدتي؛ فهي تواجه أكبر أزمة في محاسبة النفس في حياتها والتي لا تدري كيف ستنتهي، لذلك يجب أن تتضرع إلى الله تعالى بقوة ليقودها إلى الحق، فثقتُها بالله تعالى مطلقة واعتمادها عليه مطلق؛ وعليها أن تستمدّ الراحة من إيمانها أن الله تعالى برحمته وفضله قد وجّهها حتى الآن، ولن يتركها في هذه المرحلة في شك وحيرة. فليس لديها مَن تلجأ إليه غيرهُ، وعليها أن تتخذ القرار بعونه تعالى.

في وقت مبكر من بعد الظهر خرجتْ أمي للتحقيق في الأمر الذي توليه أهميةً قصوى والذي تتوق إليه روحها, لقد اصطحبتني معها. لما وصلنا المنـــزل الذي ينـــزل فيه المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام، اكتشفت والدتي أنه منـــزلٌ يشبه تمامًا المنـــزل الذي رأته في الرؤيا. فصعدت إلى الطابق الأول وقدّمت نفسها لحضرة أم المؤمنين، وتوسَّلت إليها أن ترتّب لها رؤية زوجها الجليل ولو للمحة. فنقلتْ حضرة أم المؤمنين الطلبَ إلى زوجها، فأرسل معها الرد إلى أمي بأنه سوف يراها بعد وقت قصير، وسيتوقف بضع دقائق في الطريق إلى المسجد المجاور للمشاركة في إمامة الصلاة. وصل حضرته وجلس بجوار حضرة أم المؤمنين على بعد بضعة أقدام من مكان جلوسي أنا ووالدتي التي بمجرد

ما وقع نظرها على محياه استنار وجهها وأكدت بابتسامة حزينة: سيدي، أريد أن أبايعك. فأجابها بتكرّم: ردِّدي ورائي ما سأقوله لك. ثم تلا عليها تباعًا شروط البيعة، فردَّدتها بعده، ثم تضرّعَ للمولى بدعاء صامت وشاركتُه وأمي وسيدات العائلة الدعاء، ثم غادر حضرته بعد ذلك.

أدركتُ في وقت لاحق، وكنتيجة لملاحظاتي الخاصة، أن ما حدث لم يكن أمرًا عاديًا، خاصة أن المبايِعة كانت زوجةَ رجل لم يكن من الجماعة، لكن لم يطرح أي من الجانبين أي سؤال ولم يتبادلا أي كلمة عدا شروط البيعة، فعلى ما يبدو أن هناك انسجاما روحيا تاما بين الباحث عن الحق والهدف المنشود من هذا البحث.

اطمأنت نفس والدتي فقد قادها بحثها إلى الملاذ الروحي، ومع أنها لم تر حضرة المسيح الموعود عليه السلام مرة أخرى، إلا في الرؤيا، إلا أن التزامها بما جاء به ظلّ التزامًا تامًا لا تشوبه شائبة، حتى في المحن والبلايا، واستمرت على ذلك حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، وكان ذلك بعد مضي أكثر من ثلث القرن، ولم يعكر صفو إخلاصها شيء. لقد كان إيمانها أقوى من كل شيء، فتمسكت به في جميع الظروف.

بقيتْ بصحبة حضرة أم المؤمنين حوالي نصف ساعة كانت بدايةً لصداقة وثيقة بينهما استمرت طوال حياتها. وعندما عدنا إلى البيت أدركتْ أمي أنها سوف تواجه في غضون ساعتين أصعبَ محنة في حياتها، ولكنها كانت على يقين بأن الخطوة إلى اتخذتها اليوم كانت بتوجيه

إلهي، ولا بد أن إيمانها الراسخ قد قوّاها؛ فالله تعالى قد وجّهها حتى الآن بفضله المحض، ولا بد أن يرعاها ﷻ على الدوام. لم تواجه أي خلاف جاد في الماضي بينها وبين زوجها، وهما الآن يواجهان أزمة تكاد تعصف بهما. وقد بدأت أمي بالتضرع لله ﷻ ليمنحها القوة والتوجيه وهي تنتظر عودة والدي إلى المنــــزل.

وصل والدي، وكان لي شرف أن أكون الشاهد على ما جرى.

- هل ذهبتِ؟ سألها بلهفة وقلق مضاف إليه تحبُّبه المعتاد.
- نعم، لقد ذهبتُ.
- إذًا؟
- إنه نفس الشخص؛ قالت مرتجفة نوعًا ما.
- أنا متأكد أنك لم تتخذي الخطوة النهائية.
- فوضعتْ يدها اليمنى فوق قلبها، وأكدت: لقد بايعتُه.
- شُحب وجهه وبدأت شفتاه ترتعد، لكنه بذل جهده لضبط نفسه وتمتمَ: لم تحسني التصرف.
- جابهته بقولها: لقد امتثلتُ لمتطلبات إيماني، وسأكون حزينة لو أدى هذا الأمر إلى سخطك، ولكني لا أستطيع فعل غير ذلك، وإذا كان موقفي يسبب لك الانــــزعاج، فبإمكانك أن تفعل ما تراه مناسبًا، أما بالنسبة إليّ، فليس لدي أدنى شك في أن الذي رعاني حتى الآن سوف يرعاني في المستقبل أيضًا.

– نادى على خادمه الشخصي وأمره: انقُلْ سريري إلى الغرفة المجاورة.

عندها رفعتْ صوتها بسخرية وقالت للخادم بنبرة حازمة: نعم، انقُلْ سريره إلى مسكن الرجال.

ولا بد أن جوابها قد فاجأه، فصرخ بنبرة المجروح:

– لِمَ هذا؟

– لأن الله تعالى تفضّلَ عليّ بإبصار النور، وأنت لا تزال في الظلام!

أدرك أنها قد فازت عليه، فاستدار نحو الخادم وطرده خارجًا وهو يقول بأسف: كانت مصممة على الفوز.

مرت الأزمة بسلام، ولكن كان على والدي أن يتخذ قراره، وتضرعتْ أمي باستمرار لله تعالى ليعيد جمعهما روحيًا.

كان تشودري محمد أمين مهتمًا أيضًا بأمر الجماعة، ووالدي نفسه يميل الآن إلى المضي قدمًا مع الجماعة، لذلك استفسره ما إذا كان يرغب في الانضمام معه إلى الجماعة. فقال إنه يرغب في استيضاح بعض النقاط.. واتفقا على أن يطلبا التوجيه من المولوي نور الدين، التابع الأبرز للمسيح الموعود عليه السلام، والذي رافقه إلى سيالكوت، والذي صرح بلطف أنه سيكون سعيدًا لاستقبالهما كل مساء مدة ساعة أو نحو ذلك. فقابلاه أربع مرات، كان لي الحظ في الحضور أيضًا. وهذا أعطاني فرصة مراقبة المولوي نور الدين عن

كتب، وربما هو قد اهتم بي كابن صديقه نصر الله خان. وبعد الاجتماع الأخير قال والدي لتشودري محمد أمين: هل أصبحت قادرًا الآن على اتخاذ القرار. فقال:

- لقد وجدت الجواب الشافي للأمور التي كنت أسأل عنها.
- إذًا، هل ستبايع؟
- ما رأيك أنت؟
- أنا مستعد لذلك إذا كنتَ أنت أيضًا ستبايع.
- حسنًا، عندما تذهب غدًا لصلاة الفجر خُذْني معك لنذهب سويةً للبيعة.

وفي صباح اليوم التالي رافقتُ والدي لصلاة الفجر، وفي طريقنا مررنا على تشودري محمد أمين لينضمّ إلينا، لكنه قال إنه يشعر بأنه غير مستعد بعدُ لتحمّل المسؤوليات المنوطة بالبيعة. فبايع والدي المسيحَ الموعود عليه السلام في جلسة خاصة بعد صلاة الفجر، وكنت حاضرًا أيضًا.

بايع والدي بعد أيام قليلة من بيعة والدتي طبقًا لرؤياها، فالمقعد الذي حجزتْه له في منامها احتلّه اليوم، وعاد الانسجام إلى الأسرة.

في الحقيقة أقسمتْ أمي على الولاء في رؤياها وأكدت على ذلك من خلال البيعة التي أوفت بها حرفيًا في كل ما تبقى من حياتها. كان كل يوم، بل كل لحظة، يشهد على زيادة ثبات إيمانها. لقد كان إيمانها عميقا بالحب منذ البداية، وكبُر حبها وقويَ وتعمَّقَ حتى

أشرق في كل المظاهر، فكانت تشاهد في كل شيء مجد الله تعالى وجلاله ونور النبي الكريم ﷺ، وحقيقة المسيح الموعود عليه السلام. لقد اهتمت بالوفاء بجميع الالتزامات الواجبة تجاه خالقها تعالى ومخلوقاته وبأدق التفاصيل، حتى إن حياتها أصبحت بفضل الله مصدرًا دائمًا لنفع الجميع.

الأم المخلصة

إن العلاقة الرائعة العجيبة بين الأم وطفلها هي نعمة إلهية؛ فرغم انفصالهما الجسدي عند الولادة تزداد هذه العلاقة قوة ومتانة بمرور الوقت. إن ابنها يبقى طفلا بالنسبة لها مهما بلغ من العمر ومهما نال من وظيفة أو رتبة. هذه العلاقة تشُدّ حبال قلب الابن حتى من وراء القبر، فعندما تغادر الأم هذه الحياة تهتزّ جميع أسس حياة الابن وتفقد الحياة لذتها.

العلاقة التي تربطني بوالدتي كانت قوية بصفة خاصة، وقد كانت تمتلك قلبًا حسّاسًا ليّنًا معطاءً، وقد أصبحتُ الهدف الرئيس لحنانها ومحبتها، ويُعزى ذلك إلى خسارتها مواليدها الأوائل وبقائي أنا على قيد الحياة حتى عمر الصبا، كما أني كنت أعاني من بُثورٍ شديدة على أجفاني العليا، وهذا ما عانيت منه باستمرار منذ العاشرة حتى السادسة عشر من عمري، وكانت أمّي شريكتي في هذه المعاناة. لقد كنت مرغمًا بسبب هذا المرض على قضاء الجزء الأكبر من أيام الصيف في غرفة مظلمة؛ وكانت أمي تشاركني "ذلك السجن" غالبية الأيام، ثم أصبح مرضي خطيرًا جدًّا؛ حيث إن الرموش بدأت تنمو تحت أجفاني العليا، وكان لا بد من قطع جزء من كل جفن جراحيًّا، وكانت أمي

تحيطني في تلك الفترة بكثير من الرعاية والعطاء. إنّ حبها وتضرعاتها الحارة إلى الله تعالى من أجلي أصبحا المصدر الرئيس لعزائي، وإن انفصالنا عن بعضنا كان عذابًا لكلَيْنا.

لقد واصلت الدوام في المدرسة رغم سنوات المعاناة تلك، وكنت أدرس أثناء الأيام الباردة من السنة فقط، وبفضل الله تعالى لم أضيّع أي سنة و لم أرسب في أي صف. وفي
سن الرابعة عشرة قُبلت في فئة المتفوقين، وكنت الأول في مدرستي. فأرسلني والدي إلى كلية لاهور الحكومية لأكمل تعليمي الجامعي، فكان عليّ أن أعيش بعيدًا عن المنـــزل لأول مرة، وكان ذلك محنة أليمة لوالدتي التي أصرَّت أن آتي إلى المنـــزل كل أسبوع، وأخيرًا رضيت بأن أزورهم كل أسبوعين. وبعد كل زيارة كنت أكتب لها لأطمئنَها أني عُدتُ آمنًا إلى لاهور.

ولحسن الحظ شفيت عيني في الشتاء الثاني من سنوات كليتي، وأصبحت قادرًا على العمل بجد للتحضير لامتحان الجامعة النصفي الذي نجحت فيه بدرجة جيدة في ربيع عام ١٩٠٩. إن فترة السنتين اللتين قضيتهما في الكلية منحتني درجةً من الاعتماد على الذات، وجعلت مسألة الانفصال عن أمي أمرًا يمكن تحمُّله.

وأثناء إجازتي الأولى الطويلة وصلتْ رسالة إلى والدي من حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه يقترح فيها ضرورة بيعتي على يد المسيح الموعود عليه السلام. أما أنا فقد كنت سلّمت نفسي كليًّا لحضرته منذ ٣

أيلول/سبتمبر ١٩٠٤ عندما كان لي شرف رؤيته لأول مرة في لاهور، ثم جاءت رؤى والدتي لتثبِّت من ولائي له عليه السلام، ثم إنّ بيعتي بعد ذلك بستة أسابيع، ثم بيعة أبي بعدها بأسبوع واحد قد ولَّد لديَّ انطباعًا أنني أصبحت عضوًا رسميًا في الجماعة. الواقع أن اقتراح حضرة المولوي نور الدين كان نتيجةَ وعيه بأنه لا بد من المبادرة الشخصية لإنشاء العلاقة الروحية بين المعلم والتابع. كان والدي منذ أن انضم إلى الجماعة يقضي في قاديان معظم أيام شهر أيلول/سبتمبر، أي عندما تكون المحاكم المدنية مغلقة، وكان يحضر الجلسة السنوية للجماعة في الأسبوع الأخير من شهر كانون الأول/ديسمبر، وقد كان يصطحبني معه في هذه المناسبات. وعملاً باقتراح حضرة المولوي نور الدين توسّلت إلى المسيح الموعود عليه السلام بعد صلاة ظهر يوم ١٦ أيلول/سبتمبر من عام ١٩٠٧ أن يقبل بيعتي، وقد تكرّم عليّ بقبولها، وهكذا سمح لي، أنا العبد الفقير، أن أحظى بصحبته المقدسة بفضل من الله تعالى، التي كان والداي قد سبق ودخلا فيها قبل ثلاث سنوات. أشعر بعميق الامتنان لحضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه الذي اقترح عليّ البيعة في الوقت المناسب؛ وإلا لخسرتُ شرف البيعة على يد المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام؛ حيث توفي بعد ذلك بأشهر قليلة. فقد وصل إلى لاهور للزيارة في أواخر نيسان/إبريل ١٩٠٨، وكان الوحي الذي تلقاه من الله تعالى يشير تدريجيًا إلى دنوّ أجله، ولكنه بقي مشغولا بجدٍّ بنشر الرسالة الإلهية التي عهدها الله تعالى إليه حتى نهاية اليوم الأخير من حياته، إذ مرض ليلة ٢٥

أيار/مايو، وتوفي بعد ذلك بوقت قصير إذ كانت وفاته عند الساعة العاشرة من صباح يوم السادس والعشرين. وقد وقع خبر وفاته كصاعقة على أعضاء جماعته، ولكنهم سلّموا أمرهم لإرادة الله بسكينة وثبات وخشوع رغم حزنهم. وقد نُقل جثمانه الطاهر إلى قاديان، وكنت ممن حضر الجنازة. وبعد ظهر يوم السابع والعشرين من أيار/ مايو، تجمّع حوالي ١٢٠٠ من أبناء الجماعة الأحمدية في قاديان وبايعوا حضرة المولوي نور الدين خليفةً للمسيح الموعود عليه السلام، وأقسموا على الولاء له على النحو نفسه، ثم أمَّ حضرتُه صلاة الجنازة ووري الجثمانَ الطاهر الثرى.

لقد كانت فترة العامين الأخيرين في الكلية ١٩٠٩-١٩١١ فترة سعيدة جدًّا لي؛ فلم تعد مشكلة عيوني تعوّقني، وتمتّعتُ بصحة جيدة، مما مكّنني من اتّباع خطة جيدة وبرنامج منظم للدراسة، وسرعان ما جعلني ذلك، الأول في الصف، وأبدى أساتذتي رضاهم عن تقدمي وتمتعت بودهم.

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٠٩ ذهب والدي إلى مصيف "مَري" ليقضي جزءًا من إجازته الصيفية هناك واصطحبني معه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها الجبال، وقد تمتعت كثيرًا بهذه الرحلة.

رتّبتُ مع زميل لي لقضاء العطلة الصيفية لعام ١٩١٠ في مصيف "أيبت آباد"، وعدتُ إلى "سيالكوت" عند نهاية الإجازة كي أحضّر لامتحان التخرج، وكان شهر رمضان قد حلّ، فأخبرتني والدتي أن

والدي يتساءل عما إذا كنت قد صُمْت في "أييت آباد"، أما هي فقد كانت على ثقة بأني لم أهمل واجباتي الدينية، فأكدتُ لها أن ثقتها بمحلّها وأنني صائم حتى في ذلك اليوم، لأني نسيت بأن الصيام ليس واجبًا أثناء السفر.

وفي نهاية العام الدراسي حزت الدرجة الأولى في جميع المواد، ونجحت بامتحان الجامعة بالدرجة الأولى مع مرتبة الشرف في اللغة العربية، وحصلت على منحة دراسية لدراسة الماجستير في اللغة العربية لأصبح مدرسًا للغة العربية، ولكني لم أستفد من هذه المنحة؛ لأن أبي كان يطمح لأكثر من ذلك؛ فقد طلب مني الذهاب إلى إنجلترا لدراسة القانون. وحيث إن عمري كان ثمانية عشر عامًا فقط، فقد كان لدي متسع من الوقت لأنتسب لنقابة المحامين ولألتحق بالخدمة المدنية الهندية.

وافق حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام على سفري، وبسبب إذنه الكريم سوَّيت المسألة. لم تحتمل أمي هذا القرار بسهولة، بل كانت في حالة هلع من فكرة أن يطول فراقنا فترة طويلة؛ ولكنها التمست العزاء بالثبات والدعاء، ومع ذلك قهرها الفراقُ حين حانت ساعة الرحيل.

رافقني والدي إلى مومباي لتوديعي، فمنحني ذلك راحة كبيرة؛ حيث إني لم سافر إلى أبعد من بيشاور من جهة، وقاديان من الجهة الأخرى. كانت الرحلة إلى مومباي تجربة جديدة بالنسبة إليّ وبالنسبة لأبي أيضًا الذي لاحظتُ أثناء الأسابيع الماضية في المنـــزل أنه كان أيضًا يشعر

بضغط عاطفي، لكنه كان يحاول المحافظة على رباطة جأشه، وقد بقينا صامتيْن أثناء الرحلة الطويلة إلى مومباي معظم الوقت.

في مومباي قام والدي بمرافقتي من الفندق وحتى رصيف السفينة حيث ودّعني ملوّحًا بيده دون أن ينظر إلي مباشرة، متمتمًا بعبارات الوداع التقليدية، وبدا مرتبكا لدرجة أنه لم يقل لي أي عبارة وداع، ولم يقدّم لي أي نصيحة أو توجيه، لكني كنت أعرف أنه يساعدني بالدعاء وأنه سوف يواصل ذلك فيما بعد أيضًا.

لم أعلم كيف تحمّلتْ والدتي بُعدي عنها إلا حين عدتُ إلى الوطن بعد أكثر من ثلاث سنوات، كنت خلالها أكتب كل أسبوع رسالة لوالدي ويصلني الرد بانتظام، ولكن المراسلات، وإن كانت حميمة ومليئة بالمحبة، إلا أنها لا تُهدِّئ من نار المشاعر والعاطفة.

روت لي والدتي حادثًا قد يكون مثالاً واضحًا على اضطرابها الداخلي أثناء غيابي؛ فبعد ثلاثة أيام من رحيلي عن مومباي مع والدي، قالت جدتي لوالدتي: ما أروعَها مِن لحظة حين أستقبل ابني لدى عودته من مومباي غدًا! وقع هذا التعليق كالصاعقة على أمي فلم تستطع كبح جماح نفسها من الرد عليها بحسم: سيدتي، ابنك لم يذهب إلى ما وراء البحار، ولا يهمّ كثيرًا إذا عاد غدًا أو بعد غد! ثم شعرتْ بالندم على ردة فعلها الغاضبة هذه.

أبحرْنا من مومباي في الأول من أيلول/سبتمبر. كانت الرياح الموسمية تهبّ كالعاصفة، وكانت السفينة التي تقلّنا – س س كويربر من شركة

لويد النمساوية، والتي تزن ٤٠٠٠ طن والمتجهة نحو تريست – تترنح بعنف، وبعد مرور ساعة على الإبحار أُصبتُ بدوار البحر الذي استمر أربعة أيام يرافقه ضيق متواصل وعدم راحة. وعندما اجتزنا منطقة الرياح الموسمية أصبحتْ الرحلة مبهجة واستمتعتُ بكل لحظاها كل الاستمتاع. وقد كانت رحلة القطار من تريست، مرورًا بميونخ وفرانكفورت وبروكسل حتى أوستند ممتعة للغاية. ثم عبرنا ميناء دوفر ووصلنا لندن في وقت مبكر من صباح السابع عشر من أيلول/سبتمبر ١٩١١.

رغم أن عينيّ شُفيتا من المرض الذي ألَمَّ بهما، إلا أنه أثَّر على عيني اليمنى فأصبحتْ ضعيفة جدًا، وقد أُخبرتُ أنه حتى لو تم اختياري للخدمة المدنية الهندية فلن أجتاز الفحص الطبي، مما يعني أنه يجب عليّ أن أتخلى عن تحقيق هذا الجزء من خطة والدي. التحقت بكلية (King's College) في لندن لدراسة الإجازة في الحقوق، والتحقت بمسكن لنكولن الخاص بطلاب الحقوق، واستدعيت لهيئة القضاء في حزيران/ يونيو عام ١٩١٤، واجتزت امتحان الإجازة في الحقوق من جامعة لندن في تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام، وكنت الأول مع مرتبة الشرف.

وقد أمضيت وقتًا ممتعًا جدًا في إنجلترا باستثناء ما كنت أعانيه من آلام فراق والديّ. كانت الحياة بالنسبة لي في إنجلترا قبل الحرب تعليمًا بحد ذاتها، إضافة إلى سفري على نطاق واسع ضمن القارة الأوروبية خلال

العطلات، حيث ساهم ذلك في توسيع آفاقي الفكرية. وقد كوَّنت بعض الصداقات التي استمر بعضها خلال الحربين العالميتين وانتهت بوفاة أصدقائي، بينما لا يزال اثنان منهم على قيد الحياة؛ أحدهما في إنجلترا والآخر في فنلندا، ونحن على تواصل حتى الآن.

كتبت بانتظام لحضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام، الذي تكرّم بالرد عليّ برسائل مكتوبة بخط يده، وكان ذلك نعمة كبيرة ومصدرًا للتوجيه والراحة.

توفي حضرته رضي الله عنه يوم الجمعة ١٣ مارس/آذار عام ١٩١٤، وأُعلن في اليوم التالي أن حضرة صاحبزاده ميرزا بشير الدين محمود أحمد قد انتُخب خليفة ثانيا للمسيح الموعود عليه السلام بأغلبية ساحقة من أعضاء الجماعة الموجودين في قاديان آنذاك عدا بعض الاستثناءات الملحوظة. وفي هذه المناسبة أيضًا تلقتْ أمي التوجيه الرباني من خلال الرؤيا، حيث رأت فيضانًا، وكانت المياه ترتفع بسرعة في الشوارع والناسُ يصعدون سطوح منازلهم، ثم سمعتْ أحدهم يقول إن الأرنب الذي يتكلم يطوف في الشارع. ثم رأت الأرنب يتجه إلى فناء المنـــزل عائمًا على لوحٍ خشبي، وكانت حينها في الطابق الأول فنادت عليه: خواجه، هل تستطيع الكلام؟ فأجابها: بلى، فنبَّهته: خواجه، حاذِرْ كي لا تغرق. فردّ عليها: إذا غرقتُ، سأُغرقُ الكثيرين معي.

وبعد بضعة أيام رأت عددًا كبيرًا من الناس تجمّعوا وسط سهل واسع، وكان يبدو أنهم ينتظرون حدثًا هامًا، ثم أشرق نور من الأرض على

شكل مصباح كهربائي هائل، وبدأ يصعد ببطء نحو السماء، كما لو أنه كان يُدفع من الأسفل بواسطة آلة، وبمجرد ظهور هذا النور بدأ معظم الناس بالتوجه نحوه وبدؤوا يتقدمون باتجاهه لرؤيته عن كثب. فذهبتْ أمي نحوه أيضًا ونادت على والدي ليأتي بسرعة ويرى النور وهو لا يزال قريبًا من الأرض، حيث ستكون رؤيته عن قرب أكثر إبهاجًا من رؤيته وهو مرتفع. فسارع أبي خطاه نحو النور الذي واصل الارتفاع بشكل مطرد حتى وصل السماء وأضاء السهل كله بشكل ساطع. لاحظت أمي مجموعةً من الناس يرتدون المعاطف والقبعات التركية ويقفون على مسافة من ضفة القناة، ولا يعيرون النورَ أي اهتمام، فسألت زوجها: ماذا يفعل أولئك الناس ولماذا لا يشاهدون مشهد النور المنعش للروح؟ فأجابها أنهم مشغولون بمشاهدة تدفّق المياه في القناة.

رفض قلّة قليلة من أبناء الجماعة البيعة على يد حضرة صاحبزاده ميرزا بشير الدين محمود أحمد خليفةً للمسيح الموعود عليه السلام بعد وفاة حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه. وقد كتب لي والدي أن هذه المسألة من مسائل الإيمان وينبغي عليك التماس التوجيه الإلهي في شأنها من خلال الدعاء الجاد، ثم تتخذ القرار بنفسك. أما أمي فبايعتْ حضرةَ الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام، وحثّتْني على أن أحذوَ حذوها على الفور.

كان الخواجه كمال الدين، وهو عضو بارز في الجماعة، قد وصل إلى إنجلترا في خريف عام ١٩١٢، وكان من وقت لآخر يحدّثني بشأن مسألة الخلافة، وذكر لي أيضًا اثنتين من رؤاه، قد اقتنعت من كل ذلك

أن موقفه من مسألة سلطة الخليفة كانت بسبب خلاف في وجهات النظر مع حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام بشأن هذا الموضوع الذي كان يُجيب عليه الخليفة مرارًا وتكرارًا بشكل قاطع. وهكذا لم أتردد في الامتثال لنصيحة أمي بشكل عاجل، وقام والدي بمبايعة حضرة الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام بعد أسبوع من التفكير العميق والدعاء الجاد لالتماس التوجيه الإلهي. حدث هذا كله قبل ثلثي قرن[٢] من الزمان، ويشهد بزوغ فجر كل يوم على الدعم والتأييد الإلهي للخلافة.

زاد فراقُ والديّ من شعوري بمحبتهما لي أثناء وجودي في إنجلترا، مما ولّد في قلبي حبًّا مخلصًا لهما من جديد، وصممتُ أن أبذل قصارى جهدي عندما أعود لدياري لكسب صداقة والدي، إضافةً لحبه الأبوي، حتى يقتنع بأنه ليس لديه ابن مطيع فحسب، بل صديق ورفيق مخلص أيضًا. وكتبتُ لأمي أني سوف أحضر لها محيطًا لا حدود له من الحب الذي يظل يتسع ويكبر. وبفضل الله المحض حققتُ كلا الأمرين.

دُعيت إلى نقابة المحامين في حزيران/ يونيو ١٩١٤، و كان علي البقاء في لندن حتى تشرين الأول/ أكتوبر لامتحان الإجازة في الحقوق. ثم بدأت الحرب العالمية الأولى في بداية آب/ أغسطس، فخضع كل شيء للمجهود الحربي. كان من بين الأشياء التي تضررت أثناء الحرب نقلُ

---

2 أُلّف هذا الكتاب بالإنجليزية عام ١٩٨١. (الناشر)

البريد بين بريطانيا والهند؛ فقد كانت الطريقة العادية لنقل البريد الخارجي من لندن إلى مارسيليا برًّا عبر فرنسا كل أسبوع، ثم ينقل البريد من هناك في سفينة بخارية إلى مومباي، ويُتَّبع نفس النظام في الاتجاه المعاكس. ومع اندلاع الحرب بدأ البريد يُنقل عن طريق البحر على طول الطريق بين لندن ومومباي، مما أخّر في إيصال البريد إلى الجهتين أسبوعًا. وعندما تأخرت رسالتي الأسبوعية أول مرة وأعلمَ ساعي البريد أمي أن البريد تعطّلَ من جراء الحرب، سقطتْ مغشيًا عليها. وبعد انقضاء أسبوع التأخير وصلتها رسائلي المعتادة مما طمأَنَها من جديد وجلب لها الراحة.

وقد بدّد جميعَ مخاوفها وصولي الآمنُ إلى الوطن في نهاية الأسبوع الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر، وأصبحتْ غُصَّة الفراق مجردَ ذكرى كابوس.

كنت قد غادرت لندن فور انتهاء امتحاني، ولمّا وصلتُ لاهور شعرت أن واجبي الأول هو تقديم نفسي لحضرة خليفة المسيح في قاديان، وأن أؤكد له البيعة شفويًّا بدلاً من أن أذهب مباشرة إلى سيالكوت، وهذا ما قمت به.

تلقيتُ بعد بضعة أيام نتيجة امتحان إجازة الحقوق، والمذهل أني كنتُ الأول مع مرتبة الشرف. سُجِّلت محاميًا في المحكمة الرئيسة في البنجاب، وحصلت على ترخيص لممارسة القانون. بدأت بممارسة القانون في سيالكوت كمحامٍ متدرب لدى والدي، وكان حينها الأولَ في القانون

المدني في سيالكوت. وقد حافظ على مستوى من القيم المهنية العالية، وكان ذائع الصيت. لقد كنت محظوظًا جدًا حيث تمتعت بالقرب من هذا الموجه والمعلم. كان ذا شخصية محافظة. ومع أن حياته اتسمت بالتقوى المثالية والزهد والتقشف، إلا أنه حثّني على الاهتمام براحتي، فقد كان بيتنا كبيرًا وكانت غرفتي واسعة ومريحة تمامًا. لقد أشعرَني والدي بأنه يثق بي ثقة تامة، فبدلاً من أن يخصص لي جزءًا مِن دخله جعلني أنا مَن أتلقّاه وأديره، ولم يسألني يومًا عن الحساب، فأعطاني الصلاحية بأن أصرف على نفسي كيفما أشاء. وكان هذا سخاء كبيرًا، لكني حرصت على إنفاق المال فيما هو ضروري فقط. وكانت والدتي راضية تمامًا عن هذا الترتيب، وحين انتقلتُ إلى لاهور تقاعدَ والدي عن ممارسة المحاماة ليستقرّ في قاديان، وأحال دخله من ممتلكاته إليّ، وكان يطلب مني ما يحتاجه لتلبية احتياجاته والتزاماته، ولم يسألني مطلقًا عن الحساب، لكني احتفظت بالحساب ولم أنتفع بأي جزء من المدخرات في تلبية احتياجاتي الشخصية. وفي إحدى المرات سألني والدي لماذا لم أشتر سيارة، لأنه كان متأكدًا أني أستطيع دفع ثمنها بسهولة، مما يعني أنه بإمكاني الاستفادة من الاحتياطي لهذا الغرض. فاشتريت سيارة جيدة جدًا لإرضائه، وبفضل الله تعالى لم أعتمد على مدخراته التي حُسبت بعد وفاته كجزءٍ مِن تركته.

تقدمتُ كثيرًا تحت إرشادات والدي في ممارسة القانون، وكان مسرورًا بإطراءات القضاة على أدائي في المحكمة، ولكني لم أكن راضيًا

كليًّا عن أداء المحاكم المحلية، وشعرتُ أنها تفتقر إلى أمرٍ ما؛ وربما لم يكن هناك ما يكفي من التحدي الفكري.. وأيًا كان السبب فقد استغللت الفرصة التي عَرضت نفسها عليَّ للانتقال إلى لاهور في نهاية آب/أغسطس عام ١٩١٦ وهي وظيفة مساعد محرر جريدة "الدعاوى الهندية"، وكانت في ذلك الوقت الصحيفة الوحيدة التي تكتب عن أحكام مختارة من المحكمة الهندية العليا، ومن أحكام اللجنة القضائية التابعة لمجلس الاستئناف السري في الهند.

قرّر والدي أن يترك ممارسة المهنة، فقررتُ أن أقضيَ نصف كل أسبوع في سيالكوت لمساعدته (في إنجاز ما عليه من قضايا ومسؤوليات مهنيّة)، إلى أن انتقلَ إلى قاديان ونذر حياته لخدمة الدين.

أقامت أمي في منــــزل أجدادي في "دسكه"، لكنها قسمت وقتها بين قاديان ولاهور ودسكه. وكانت تعتقد أن من واجبها كسيدة البيت أن تنفق الجزء الأكبر من وقتها في دسكه. وبسبب جهودها أُنشئت الجماعة الأحمدية في دسكه، وكان والدي يقضي شهر رمضان في دسكه أيضًا.

كان هناك معارضة بسيطة ضد الجماعة في دسكه، وكانت العقبة الرئيسة هي اللامبالاة تجاه القيم الروحية، ولكن مثالية أمي وأعمالها الخيرية مع الجميع ساهمتْ في اهتمام الناس بالجماعة. أما الشيخ المورث -يحصل على لقب شيخ بالوراثة- المتعصب عن جهل لدينه، فقد رأى أن من واجبه تشويه تعاليم الجماعة ومبادئها، لكنه مع ذلك لم يُحرَم تعاطُفَها وإحسانها؛ ففي إحدى المرات رآها خادم الأسرة منهمكة في

تحضير ملابس للأطفال، فسألها: لمن هذه الملابس؟ فأخبرته أنها لحفدة الشيخ فلان؛ فاستغرب وقال: لكنك تعرفين يقينًا أن الشيخ عدونا. فأجابته: الله صديقي، وليس لي في الدنيا أي عدو، كيف أطيق رؤية هؤلاء الأطفال الفقراء يركضون شبه عراة ولا تكسوهم إلا خرق ممزقة؟ عندما تجهَّز هذه الملابس عليك أن تسلّمهم للشيخ، ولكن عليك أن تأخذها إليه ليلاً حتى لا يخجل مِن قبول الإحسان منّا.

وفي إحدى المرات - وتنفيذًا لقرار المحكمة- صودرت ماشية فلاح غير أحمدي مِن قبل دائنه الذي كان مرابيًا هندوسيا. ومن بين الماشية المصادرة عجلٌ كان مفضَّلا لدى الابن الصغير للفلاح، وقد تألَم لخسارته جدًا، واجتذبت صرخاته المثيرة للشفقة اهتمامَ والدتي، فاستدعت خادمَ الأسرة وطلبتْ منه الذهاب لتسوية الأمر نيابة عنها مع المرابي بدفع رأس مال الدين وإرجاء دفع الفوائد مقابل إفراجه عن الماشية. واقتنع المرابي بهذا الاتفاق، فدُفع المبلغ في الحال، واستعاد ابن الفلاح عجله المفضل في حضورها؛ فأدخلتْ ابتسامتُه المفعمة بالارتياح الفرحَ إلى قلبها. لقد كان تعاطفها الإنساني كبيرًا جدًا، وكانت على استعداد للتخفيف من معاناة الناس بكل ما أوتيت من قوّة.

السنوات الأخيرة من حياة والدي

عندما بايع والدي المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام أكّد لحضرته أنه أثناء ممارسة القانون تنشأ أحيانًا حالات يصعب فيها المحافظة على أعلى معايير الصدق، والتمس منه التوجيهات فيما إذا كان عليه التخلي عن ممارسة القانون وتكريس حياته لخدمة دينه، لكن حضرة المسيح الموعود عليه السلام نصحه بالاستمرار في ممارسة مهنته وأن يلتمس التوجيه الإلهي من خلال الثبات والدعاء وإعطاء الصدقات وأن يبذل قصارى جهده في تقديم مثال يحتذى في الاستقامة والنــزاهة في المهنة. فسعى دومًا للعمل بهذه النصيحة. وبعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام سعى لأن يلتمس التوجيه من حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام، فنصح بمواصلة العمل بنصيحة المسيح الموعود عليه السلام. ولكي يتمكّن من العمل بتلك النصيحة على النحو الأفضل أضاف أبي مهمة حفظ القرآن الكريم إلى تدريباته الروحانية، وعندما تمكن من تحقيق ذلك أخبر حضرةَ خليفة المسيح الموعود بذلك، فعبر حضرته عن سعادته بقوله بين الناس: إن "نصر الله خان" توّاق للفوز بحبي لدرجة أنه قد غرس محبوبي (أي القرآن الكريم) في قلبه.

في وقت مبكر من خلافته اقترح حضرة الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام على والدي أن يكرّس نفسه لخدمة الدين، فأجاب أنه كان يتوق

لذلك منذ انضمامه للجماعة، فعمل الترتيبات اللازمة للاستقالة من عمله، وحضر إلى قاديان في نيسان/إبريل عام ١٩١٧حيث عُيّن أمينًا عامًا لمكتب حضرة الخليفة، وأمينًا لإدارة "مقبرة بهشتي"★. وقد كرّس لياليه لإعداد فهارس لأعمال المسيح الموعود ؑ، وكان عمله هذا كله نابعًا من الحب؛ ولم يكن يسعى مقابل هذا الجهد إلا إلى مرضاة الله تعالى.

في صيف عام ١٩٢٤ ذهب والداي إلى بيت الله الحرام للحج، وأخذا معهما "ميان جومان"، خادم الأسرة. وقد كانت الرحلة البحرية ذهابا وإيابا أثناء هبوب الرياح الموسمية، فعانى والدي كثيرًا من دوار البحر، ولكن أمي تمتّعت كليًّا بكل لحظة. وكان هناك ندرة كبيرة في مياه الشرب في تلك السنة في كل من منى وعرفات، وعانى الحجاج كثيرًا ومات الآلاف عطشًا، وقد أقلقتني هذه الأخبار جدًا، ولم يهنأ لي بال حتى عادوا بالسلامة. وقد أخذتْ أمي معها ملاءات وغسلتها بماء زمزم، لتُستخدم ككفن لها ولوالدي حين يفارقان الحياة. استخدم والدي الملاءة الخاصة به بعد عامين من ذلك، أما أمي فاستخدمتها بعد

★ معناها: مقبرة أهل الجنة، أسسها المسيح الموعود ؑ بناء على رؤيا رأى فيها مقبرة وقيل له إنها مقبرة أهل الجنة، فسماها بهذا الاسم. ثم وضع شروطا لمن يدفن فيها: أبرزها -بعد تحلّيه بالتقوى وتجنبه المحرمات وأعمال الوثنية والبدعة- أن يقدم من عُشر إلى ثُلث دخله من أجل نشر الإسلام وتبليغ أحكام القرآن أثناء حياته، ويوصي بأن يُدفَع بعد وفاته عُشْرُ تركته على الأقل للجماعة للغرض نفسه. (المترجم)

اثني عشر عامًا. فقد أثّرت رحلة الحج على صحة والدي وبدأت تتدهور تدريجيًّا.

في آب/أغسطس عام ١٩٢٥ قررتُ ووالداي زيارة كشمير، ورافقَنا تشودري بشير أحمد. توقفْنا قليلا في "مَري" حيث مرض والدي مرضًا اتخذ منحى خطيرًا، فقامت أمي مع بشير أحمد بالعناية التامة به لكنه لم يتماثل للشفاء إلا بعد عدة أسابيع، ولم نستطع استئناف رحلتنا إلى كشمير قبل منتصف أيلول/سبتمبر، وفي ذلك الوقت من السنة كان الوادي الشهير عالميًا في أفضل حالاته واستمتعنا كثيرًا بإقامتنا هناك نحو أسبوعين.

في أواخر تموز/يوليو ١٩٢٦ كان عليّ الذهاب إلى سيالكوت لأكون محامي الجماعة في الدعوى المدنية المقامة من قبل معارضي الأحمدية حول مسجدها الرئيسي هناك. حضر والدي إلى سيالكوت أيضًا حيث استُدعي بصفة شاهد في القضية، وقد كان منهَكًا ومتعبًا بسبب السعال. وقد أدرك المدّعون أن القضية ستنقلب عليهم بسبب أدلتهم الباطلة، فسحبوا الدعوى.

عدت إلى لاهور، وقرر والدي زيارة "دسكه" بضعة أيام قبل أن يعود إلى قاديان. في ١٢ آب/أغسطس، علمتُ أنه مريض، وذهبت إلى "دسكه" وأحضرتُه ووالدتي إلى لاهور. تبين بعد الفحص أنه مصاب بمرض ذات الرئة، وفي اليوم التالي استُخرجت المياه من الرئة، مما أشعره براحة كبيرة، فبدأت حالته بالتحسن. كان والدي نفسُه ضليعا بمبادئ

الطب إلى حد ما، وقد أدرك خطورة تلك الأعراض، وبعد يومين أو ثلاثة قال لي: الحياة والموت بيد الله وحده، وإني أشعر بتحسن وسأتعافى بإذن الله، ولكن نظرًا لطبيعة مرضي وبسبب كبر سني، أود أن أُملي عليك بعض التوجيهات. ولما كان موضوع تنظيم ممتلكاته يقلقه؛ فقد كتب وصيته قبل عدة سنوات، ثم أخذ يملي أوامره عليّ حول بعض الأشياء التي كان من بينها أن أطلب من حضرة الخليفة الثاني، الذي كان حينها في مصيف "دِلْهَوزي"، أن يؤمّ صلاة الجنازة عليه بعد وفاته. وبعد ذلك لم يشعر بالقلق من أي شيء.

استمرت حالته بالتحسن، وكان قادرًا على المشي وتناوُل الطعام بنفسه. وقد ذكرتُ له يومًا أني تلقيتُ رسالة من حضرة خليفة المسيح الموعود يحثّني فيها على زيارته في دلهوزي. ولأني لم أكن قد زرتُ دلهوزي من قبل فقال والدي بشغف: هذا ممتع، سنذهب كلنا إلى دلهوزي. فقالت أمي: وماذا عن صحتك؟! فقال: من يعلم؟ ربما يهبني الله تعالى الصحة.

وقد بدأ يشعر بضغط على رئته في نهاية ذلك الشهر، وكان على طبيبه مغادرة لاهور، فحوّل حالته إلى زميل له مختص، والذي أشار أن المياه تجمعت في قاعدة الرئة مرة أخرى وينبغي استخراجها. تردد والدي بعض الشيء، لكنه وافق بناءً على طلبي وطلب والداتي. وفي اليوم التالي، الأحد ٢٩ آب /أغسطس، جلب الطبيب مساعدًا معه واستخرجا المياه. انسحبت أمي أثناء ذلك إلى الغرفة المجاورة تتضرع إلى الله تعالى. وحين

انتهت العملية أخبرتُها بذلك، فعادت إلى الغرفة التي فيها والدي ورأت ظهرَي الطبيبن وهما يغادران غرفة الانتظار. أربكتْها رؤيتهما فصرخت: اللهُ يبعث الخير؛ ثم ذكرت لي رؤيا رأتها منذ بضعة أيام أن رجلين في لباس أوروبي كانا يغادران غرفة الانتظار، وبدا ظهراهما تمامًا كظهري هذين الطبيبين، وأشار أحدهم إليهما قائلاً: هذان قاما بذبح السيد تشودري.

شعر والدي ببعض الراحة بعد العملية، لكن بعد الظهر أصبح يتنفس بصعوبة وشعر ببعض الألم، وبحلول صباح اليوم الثلاثين خفّ الألم ولكنه استمر يتنفس بصعوبة، وبدأت حالته تتدهور تدريجيًا وأدرك أنه قد دخل المرحلة الأخيرة من مرضه، لكنه لم يُظهر أي انــزعاج ولم يُبْدِ قلقًا، بل التزم الهدوء مع تناول العلاج الموصوف. وفي وقت مبكر من صباح يوم الثلاثاء، ٣١ آب /أغسطس، تركتُه وذهبتُ إلى غرفتي لأصلي الفجر، فسمع صوتي أتضرع بألم، فحثَّ والدتي على الذهاب إليَّ فورًا لطمأنتي، فجاءت إليَّ وانتظرتني حتى انتهيت من الصلاة. ثم طلبت مني الثبات لأن والدي سيُتوفّى ليلة الخميس. فسألتُها عمّا إذا كانت قد رأت رؤيا بذلك، قالت: نعم، رأيت (في المنام) أباك مشغولاً بكتابة شيءٍ ما كما لو أنه كان يكمل مهمة عاجلة، حيث كانت هناك امرأة شابة تجلس في الغرفة على الأريكة، فطلب شكر الله خان (أخي) من أبيك قائلا: إذا كنت ذاهبًا فخُذْ هذه الشابة معك. فنظر والدك مِن فوق كتفه، دون أن يتحرك عن كرسيه، وقال: يا عزيزي، سيُفرَج عني

يوم الجمعة. وإن استخدامه تعبير الإفراج إشارة إلى أنه سوف يغادر في وقتٍ مبكر من يوم الجمعة؛ لذا عليك أن تبقى صامدًا لقبول ما قرره الله تعالى برحمته مهما قال الأطباء، وعليك أن تعمل الترتيبات اللازمة لنقل جثمانه في الساعات الأولى من صباح الجمعة إلى قاديان حيث سيدفن، وأرسِلْ رسالة إلى إخوانك في "دسكه" وأخبرْهم أنه ينبغي لاثنين منهم أن يأتيا فورًا وأن يحضرا معهما ملاءات الكفن؛ وعلى أخيك الثالث أن يذهب ليأتي بأختك وينبغي أن لا يتأخرا أكثر من بعد ظهر يوم الخميس، وحذِّرْهم جميعًا أن يقوموا بكل ذلك بسرية تامة، وإلا فإن الجميع سيأتي إلى لاهور. وأضافت: اطلبْ مِن أحدهم تحضير تابوت لوالدك حيث ينبغي أن يكون جاهزًا بُعيْد ظهر الخميس، كما أن عليك ترتيب وسائل النقل اللازمة للرحلة إلى قاديان التي ينبغي أن تكون جاهزة عند الساعة الثانية من صباح يوم الجمعة.

لم تظهر على والدي أي اضطرابات باستثناء صعوبة طفيفة في التنفس. لقد كان في كامل قواه وكان يعي تمامًا ما يجري، وكان يتحدث إلينا، ولم تبدأ حالته بالتراجع إلا صباح يوم الأربعاء، الأول من أيلول/سبتمبر. وحين وجدتُ نفسي وحيدًا معه قلت له: أنا واثق أنك لن تشعر بالوحدة، فالفراق لن يكون طويلا، سوف نجتمع قريبًا؟ فأجابني: أنا راضٍ تمامًا بما يرضى به ربي.

وفي فترة ما بعد الظهر اقترحتْ أمي عليّ تلاوة سورة يس، وسألته ما إذا كان يرغب في الاستماع إلى التلاوة فأشار إلي بالموافقة. وبعد أن

انتهيت من تلاوة القرآن سألته إذا ما كان يرغب في أن أتلو عليه أي جزء آخر، فقال: أجد صعوبة في التركيز.

وصل أخواي، شكر الله خان وأسد الله خان مع بعض الأقارب في أواخر ذلك اليوم.

أصبح تنفُّس والدي يوم الخميس، الثاني من أيلول/سبتمبر، طبيعيًا، ومع أن والدي كان يزداد ضعفًا، لكنه كان في كامل وعيه، وكان يغفو أحيانًا. وقال لأمي أنه يشعر براحة تامة، وعندما غفا رأى أن الغرفة كانت مليئة بالورود ذات العبير الفوّاح. أعطاه الطبيب حقنًا على فترات قصيرة لتقوية القلب، ولم يعترض على ذلك مع أنه لم يكن يعتقد بجدواها. وقد قال محاولا مواساتي لما لاحظ حزني: لا يمكن تجنُّب هذا الأمر.

مرّ عليَّ بعد الظهر بابو عبد الحميد، مراجعُ حسابات السكة الحديدية، الذي كنت طلبتُ منه إجراء الترتيبات اللازمة، فأخبرني أن النعش بات جاهزًا، وأن السيارات ستصل في الساعة الثانية، وسأل عن والدي فقلت له إني كنت أتحدث معه عندما وصل.

وصل أخي عبد الله خان مع شقيقتنا، وقد صافح والدي وأبقى يده بين يديه لبرهة، فسحب والدي يده ووضعها على ركبتي، وقال لعبد الله: عزيزي، أفضّل أن أُريح يدي هنا.

كنت أعرف على أساس رؤيا والدتي أن الوقت المتبقي لرحيله بدأ ينفد بسرعة، وكان قلبي يتوق إلى البقاء على اتصال معه، فهمست في

أذنه: أحبّك لدرجة أتمنى لو كنتُ مكانك لأحمل عنك الألم. فوضع ذراعه حول عنقي وسحب وجهي إليه وهمس في أذني: هذه الرغبة لا تتفق مع إرادة الله تعالى، فلكل أجلٍ كتاب.

سألته بعد دقائق: هل تعرف من القائل:

كنتَ السوادَ لناظري فعَمِي عليك الناظرُ

مَن شاء بعدك فليمُتْ فعليك كنت أحاذرُ

فأجابني: حسان بن ثابت، قالها في رثاء النبي الكريم ﷺ.

أُعلنَ أن العشاء جاهز، ولم يرغب أحد بتناول الطعام، ولكن أبي أصرّ أنه لا ينبغي أن ندع الخدم ينتظرون. فقمت بمرافقة الضيوف إلى غرفة الطعام وبقيت بضع دقائق فقط، ثم عدت بسرعة إلى جانب والدي.

كانت الليلة شديدة الحرارة والرطوبة، فاقترحت أمي نقْلَ سرير والدي إلى الفناء الأكبر حيث بعض النسيم. فسألتُ والدي، فوافقَ، فأعطيتُ التوجيهات لذلك. ثم سألتُه مرة أخرى: هل تفضِّل أن تكون هناك؟ فقالت أمي: لقد توفي، ثم تلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم تضرعت لله تعالى: يا رب تغمّدْه برحمتك الواسعة، واحشرْه في زمرة المصطفى ﷺ وعند قدمي المسيح الموعود عليه السلام.

وعندما كانت آخر الترتيبات تُعَدّ مشيتُ مرتين على أطراف أصابع قدمي إلى باب غرفة أمي لأرى حالها؛ لقد كانت تحاول تحمُّل صدمة الخسارة الفادحة. كانت جالسة بين النساء تصف في هدوء مراحل

مرضه. وعندما أصبح كل شيء جاهزًا، أُعِدَّت مراسم الجنازة التي انضمتْ إليها أمي مع النساء. وعندما كان النعش على وشك أن يوضع في العربة، رافقتُها إلى النعش لتودّعه، فقالت: أودعتُك اللهَ تعالى، لقد كانت حياتي معك في غاية السعادة، وقد حقّقتَ حتى أبسط رغباتي، لقد كان قلبي معك مسرورًا دائمًا، ولا أذكر أي مناسبة شعرتُ فيها بالشكوى أو الضيم معك، ولكن لو حدث ذلك فأنا أسامحك في سبيل الله، أما من ناحيتي فقد كنتُ مقصّرةً في كثيرٍ من الأمور، وسأسعى لالتماس المغفرة من الله تعالى عليها. أدعو الله تعالى أن يتغمدك برحمته، بلِّغْ سلامي إلى والدك، وإذا أمكنَ فأَخبِرْنا كيف صارت حالتك.

ربما انفلتت الكلماتُ القليلة الأخيرة من شفتيها لا إراديًّا، أما ما عداها فقد قبلتْ مشيئة الله تعالى بثبات وابتهاج أيضًا، ولم تعبّر عن حزنها حتى بتنهيدة على انتهاء الرفقة المُحبّة والمخلصة التي امتدت على مدى أكثر من نصف قرن، وكانت مثالاً لكل مِن شهدها. هي وحدَها تعلم مدى معاناة قلبها، لكن ذلك كان سرّها المقدس، الذي لن تسرّ به لأحد. كان الله تعالى وحده المؤتمن على أسرارها والمعزّي لقلبها، وكانت مكتفيةً به تعالى.

أُرسلت برقية لحضرة خليفة المسيح في دلهوزي تنقل إليه خبر وفاة أمين مكتبه العام. وقد غادرْنا لاهور في الساعات الأولى من الصباح ومعنا جثمان خادم الله المخلص، ووصلنا قاديان بعد وقت قصير من شروق شمس يوم الجمعة، الثالث من أيلول/سبتمبر. وقد أرسلَ إلينا

حضرة خليفة المسيح أنه قادم في الطريق وأنه سوف يؤمّ بنفسه صلاة الجنازة. كان المطر غزيرا، فغمرت المياه الطرق، فلم يتمكن الخليفة ومن معه من الوصول إلى قاديان إلا بعد منتصف الليل، فأمّ حضرته صلاة الجنازة في الساعة التاسعة من صباح يوم السبت الرابع من أيلول/سبتمبر. ثم أَذِنَ بدفنه في قطعة الأرض المحفوظة لصحابة المسيح الموعود عليه السلام البارزين إلى الغرب تماما من القطعة التي دفن فيها المسيح الموعود عليه السلام. وفي اللحظة التي انتهى فيها الدفن هطلتْ فجأةً رشّةٌ من المطر، حيث لم يبق هناك حاجة للمياه لتشكيل تلة من التراب فوق القبر.

وقد كتب حضرة خليفة المسيح بنفسه تذكاره ليحفر على شاهد القبر وكان على النحو التالي: بسم الله الرحمن الرحيم، نحمده ونصلي على نبيه الكريم وعلى خادمه المسيح الموعود.

تشودري نصر الله خان محامٍ من سيالكوت، بايع المسيحَ الموعود عليه السلام عام ١٩٠٤ في سيالكوت خلال زيارة المسيح الموعود لها. كان يميل إلى ذلك بإخلاصٍ قبل البيعة بفترة طويلة. سبقته زوجتُه في الانضمام إلى الجماعة بناء على بعض الرؤى. لقد كان نبيلاً جدًّا، وجدّيًّا وصادقًا، وقد تقدّمَ بسرعة فائقة في الإخلاص، وحفظ القرآن الكريم وهو متقدمٌ في السن، وفي نهاية المطاف، وبناءً على اقتراحٍ مني، توقف عن ممارسة القانون وكرّس حياته لخدمة دينه، وبسبب حماسه المتزايد جاء واستقر في قاديان، وقمتُ بتعيينه أمينًا عامًا لمكتبي، فأدى واجباته بمنتهى الحرص

والتفاني. أدى فريضة الحج أيضًا. وأثناء تأدية مهامه لم يكن يرغب إلا بالفوز بمرضاة الله تعالى، وكسب مودتي، ولما فيه صالح إخواننا الأحمديين. وحيث إنني عملتُ معه عن كثب، فقد وجدته بعيد النظر يُقدّر الأشياء حق قدرها، وكان يعمل بإرادة قوية بحيث امتلأ قلبي بالمودة والامتنان له. إن ذكراه تشعل قلبي. أدعو الله تعالى أن يرفعه وأن يمكّن أولاده من التقدم والارتقاء بنفس العزيمة، وأن يهيئ لجماعتنا أعدادًا كبيرة من الناس يسيرون على خطى هذا الرجل المخلص، آمين.

غادرْنا قاديان في الخامس من أيلول/سبتمبر ووصلْنا "دسكه" بعد الظهر. وقد قالت أمي أنه ينبغي أن نصل دسكه عند صلاة الظهر حتى تستطيع أن تشغل نفسها في الصلاة فور وصولها بحيث لا يتسنى للنساء اللواتي قد يصلن للتعزية أي فرصة أو عذر للانغماس في أية أمور لا حاجة لها. وقد قالت إحدى النساء غير الأحمديات لوالدتي إنها أصيبت بحمى في اليوم السابق وفقدت الوعي فرأت في الحلم أن "ميان جمن" خادمَ أسرتنا يقول لها: تعالي دعيني آخُذْك إلى قاديان، فخرجا معًا، ثم أشار "ميان جمن" إلى الأمام وقال: انظري هناك قاديان. ثم دخلا حديقة كبيرة وشاهدا قصرًا يجلس أبي في غرفته الأمامية على أريكة يقرأ القرآن الكريم، بينما تحرّك شابةٌ جميلة المروحةَ له، وكان في الغرفة جميع أنواع الفواكه، فطلب والدي منهما الجلوس وقال لها: قولي لوالدة ظفر الله خان إني سعيد جدًا. ثم استعادت وعيها فجأة وشعرتْ أن الحمى قد زالت عنها.

سُرَّت أمي بما روته المرأة، لكنها تساءلت عن معنى الشابة الجميلة التي رأتها المرأة في منامها وهي فاقدة الوعي.

في اليوم التالي وصلت إحدى خالاتي لزيارة والدتي وروت لها تقريبًا نفس الرؤيا مع فرق طفيف وهي أن والدي قال لها: قولي لأختك إني سعيدٌ جدًا وقد عيّنت هذه المرأة الشابة لخدمتي فقط.

إقامة والدتي معي

كانت رغبة والدي أن تعيش والدتي معي بعد وفاته، وأثناء مرضه الأخير أبلغَ أمي بذلك؛ وكانت هذه رغبتها أيضًا؛ أما أنا فلم يخطر ببالي أي احتمال آخر؛ فلقد كنا قريبيْن على الدوام، وقد زادتنا وفاةُ والدي قربًا. وهكذا اعتبرتُ نفسي محظوظًا جدًا لأني سأتمكن من خدمتها حتى آخر يوم في حياتها. كانت زوجتي مخلصة لها بقدر إخلاصي، ولم يحدث في أي وقت أدنى خلاف بينهما. كان جميع إخواني يعرفون جيدًا أنه لن تطيق أمي ولا أنا الانفصال وأنها ستكون أسعدَ ما يمكن بصحبتي، ولم يشعر أيٌّ منهم بالغيرة مني حيال ذلك أبدًا. وكان كل واحد منهم يرحّب بها دائمًا في منـــزله إذا ما اختارت زيارة أحدهم، وكانت تزورهم كثيرًا؛ وكانت ترحب بهم وبزوجاتهم وأطفالهم عندما يأتون لزيارتها، لقد كان ذلك ترتيبًا مناسبًا بفضل الله تعالى.

في ذلك الوقت كنت قد بنيتُ منـــزلاً في منطقة "مودل تاؤن" على بعد أميال من لاهور. كان لوالدتي غرفة خاصة بها مع حمام، وحيث إنني كنت أمضي معظم وقتي في مكتبي الذي كان في المدينة، فقد اعتدتُ قضاء جزءٍ من المساء معها في غرفتها، حتى في المناسبات التي كنت

أضطر أن أتأخر فيها عن البيت بسبب عشاء أو مشاركة أخرى في المدينة.

بعد عدة سنوات عندما تأهّلَ شقيقي الأصغر، أسد الله خان، للعمل محاميا وبدأ يعمل عندي متدربا، رتب ليعيش مع أسرته في شقة فوق مكاتبنا، وسُرَّتْ أمي بذلك جدًا، فكانت تذهب معي إلى المدينة في الصباح، فتمضي يومها مع أسرة أسد الله خان وتعود معي في المساء، وهكذا شعرتُ بأنها قريبة مني دائمًا.

قالت لي إنها عندما تراقبني من نافذة غرفتها أمشي إلى المحكمة، تدعو لي أن أعود إلى المكتب مكلّلاً بالنجاح والشرف. لقد اهتمتْ بعملي كثيرًا، وكان زبائني الذين يقومون بتوكيلي يطلبون منها الدعاء لهم، وهكذا فقد استفادوا من وجودها أيضًا. لا يساورني أدنى شك في أن ما حقّقتُه من نجاح سريع في عملي كان بفضل دعائها. كان وجودها معنا نعمة كبرى، وكانت معطاءة للخير على نطاق واسع ودون أي تمييز. لقد أنيرَ منـــزلنا بوجودها المبارك، واستفدنا نحن الذين كنا على مقربة منها من دعائها في كل الأوقات. كانت ذكية جدًّا وحساسة القلب. وكنت مقصّرًا بحقها جدًا، لكنها كانت تسامحني بسرعة، وتكافئني على إخلاصي لها بالدعاء المتواصل. كانت هذه سمتها المميزة التي يلاحظها كل من يتواصل معها، وكانت تسارع لإعطاء الخير بسخاء.

في إحدى المرات قالت لي إنها كثيرًا ما تفكّر لماذا أطيعها في كل شيء، وأتوق لأن أحقق لها أدنى رغباتها. قلت لها وهي متوقعةً ردي:

لأنك أمي أولاً والله تعالى أوجب علي طاعتك، وثانيًا بسبب حبك غير المحدود لي، وثالثًا لأنني آمل أن تقولي لوالدي حين تجتمعين به أنني كنتُ مطيعًا لكِ تمامًا وأنكِ كنتِ سعيدة معي. فوضعتْ يدها على قلبها وقالت: هذا ما سأقوله بكل تأكيد.

لقد كانت صارمة وعنيدة في أمرٍ واحد فقط وهو أمر الغيرة على دينها؛ فقد اعتاد والدي أن يقرأ كتاب (المثنوي) لمولانا جلال الدين الرومي مع رجلٍ صوفيٍ كبيرٍ في السن، حيث كان يزور والدي مرة أو مرتين في الأسبوع، وفي إحدى المرات نادى على والدي الذي لم يكن في المنـــزل، فأخبره الخادم أنه قد ذهب إلى قاديان، فتكدّرَ الزائر الصوفي غير الأحمدي وتنهّد بانـــزعاج متمتمًا بكلمات تنمّ عن عدم احترام لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، فسمعتْه والدتي التي استشاطت غضبًا ونادت على الخادم: ارْمِ هذا العجوزَ المنافق خارج منـــزلي، وقُلْ له أن لا يطأ عتبةَ هذا المنـــزل بعد ذلك وإلا فسيناله مكروه.

بعد أسابيع قليلة من وفاة والدي انتخبتُ عضوًا في مجلس البنجاب التشريعي الذي فتح لي طريق العمل العام، وكان السيد ميان فضل حسين رئيس المجلس، حيث كان محاميًا في القانون، وقد بدأ حياته المهنية في سيالكوت، وكان يعرف والدي ويكنّ لي التقدير الكبير، وكان قد أعطاني رسائل التوصية عندما ذهبتُ إلى إنجلترا للدراسة، وعند عودتي قام بالاهتمام بطلبي المقدم للتسجيل كمحامٍ في المحكمة الرئيسية. وفي عام ١٩١٩ عندما كان أمين لجنة كلية القانون دبّر أمر تعييني محاضرا

غير متفرغ في كلية الحقوق، وكان قد عُيّن وزيرا للتربية والتعليم في حكومة البنجاب عام ١٩٠٢ واستمر بهذا المنصب لمدة خمس سنوات محققًا إنجازات كبيرة خدمت مصالح الشعب في المقاطعة. ثم عُيّن عضوًا في مؤسسة الإيرادات. ولقد منحني ثقته الكاملة منذ بداية عضويتي في المجلس التشريعي وعاملني كقائم مقام رئيسي له.

في خريف عام ١٩٢٧ طلب مني أعضاء المجلس التشريعي المسلمون بناءً على اقتراح من السيد فضل حسين، الذهابَ إلى بريطانيا ممثّلا عنهم في تقديم وجهة نظر المسلمين لقيادة الرأي العام البريطاني حول توقُّع تعيين لجنة ملكية للإصلاحات الدستورية في الهند، والتي عُرفت لاحقًا باسم لجنة سيمون؛ وبناءً على تفويضهم أمضيتُ في لندن نحو ستة أسابيع، حيث أجريت خلالها مقابلات مع عدد من كبار الشخصيات الإنجليزية. لقد كان ذلك بالنسبة لي تعليمًا قيمًا في حد ذاته، وقد سُرّ السير فضل حسين كثيرًا بتقريري.

في وقت سابق من ذلك العام ذهبت أنا ووالدتي وزوجتي لزيارة والد زوجتي، تشودري شمشاد علي خان، في جريديش في مقاطعة بهار، حيث كان يعمل ضابطا في الفِرق العسكرية الفرعية، وفي اليوم الأول من زيارتنا رأت أمي في الرؤيا أن زوجتي تحاول قطف فاكهة من شجرة موجودة في حديقة المنـــزل، وقال لها والدي إن الثمرة لم تنضج بعد، وأنه سوف يجلب لها بنفسه بعض الفاكهة في طبق في موسم الفاكهة. فقالت له أمي: كان علينا أن نسافر ٩٠٠ ميل بالقطار حتى نصل إلى

هنا، فكيف وصلت أنت هنا بهذه السرعة؟ فقال لها: لقد رافقتكم طوال الطريق.

كان تشودري شمشاد علي خان يحب الأسرار والغموض، وفي إحدى الليالي اقترح على أمي أن تشاركه في تمارين التواصل مع أرواح الموتى، فجلستْ قبالته وقالت إنها لا تقتنع بأن أرواح الأموات تستجيب لإشارة ودعوة مَن يستدعيها للحضور على هواه. وقد شرع والد زوجتي بتجربته، وبعد عدة تجارب دعاها لتأتي وتتواصل مع روح زوجها، ولكنها قالت: أرجوك قُلْ له أن يواصل الانشغال بما قضى له الله من رحمة، فهذا أكثر بركةً له من التواصل معي.

كانت مولعة بالسفر والتمتع بمشاهد جمال الطبيعة. وفي صيف عام ١٩٢٨ ذهب حضرة خليفةُ المسيح إلى كشمير وأقام مع مرافقيه في المراكب الراسية في نهر جِهْلُم هناك. وخلال عطلة المحكمة العليا ذهبنا نحن أيضًا إلى كشمير وأقمنا في مركبٍ راسٍ قبالة مركب حضرته ومرافقيه، وكان معنا تشودري شاه نواز أيضًا. وكنت حينها قد رُشّحتُ لعضوية لجنة المجلس التشريعي، واستدعيت لاجتماع اللجنة، وأثناء غيابي فاضت مياه النهر مدة ثلاثة أيام وارتفع منسوب المياه إلى مستوى خطير، ومرت إحدى الليالي في قلقٍ شديد. وقد أخبرتني أمي عند عودتي أنها أمضت الليلة كلها تدعو الله تعالى من أجل سلامة حضرة الخليفة وجميع مرافقيه. وفي إحدى المرات انــزلقت مرساة قارب صاحبزادة ميرزا بشير أحمد وشعر الجميع بالهلع. خلد السيد "شاه

نواز" للنوم في وقت مبكر وتركتْه أمي ينام أثناء كل ذلك و لم تزعجه أبدًا، وكانت تذهب إلى باب حجرته بين الفينة والأخرى لتتأكد من أنه ينام بسلام، وتضرعت إلى الله العلي القدير: يا رب، إنه نعمتك التي وهبتَها برحمتك لوالده على الكِبر فأرجوك يا رب أن تحميه برحمتك، أما أنا فلست خائفةً على نفسي. لقد كانت تشعر بالأمان بجوار حضرة خليفة المسيح.

بينما كنا في كشمير دار الحديث بيننا عن تقدم الجماعة، وقد شعرت بالذهول عندما رأيت الناس لا يتأثرون من الحجج والمناقشات التي أجريتها معهم، بينما يتأثر بكلام أمي كثيرا كل من يتكلّم معها، فسألتُها أن تكشف لي هذا السر، فقالت: تعرف جيدًا بأني أمية، وإذا كان هناك أي سر فيجب أن يكون حب الله وخوفه الذي في قلبي. فأدركتُ حينها أن هذا هو أعلى وأفضل مستوى من التعليم.

في ربيع عام ١٩٣٠ عيِّن السير فضل حسين عضوًا في المجلس التنفيذي للحاكم العام بالهند، فهنّأتُه على منصبه الجديد، وقلت له إني سأفتقده كثيرًا في المقاطعة، فقال: لم أكن متحمسًا جدًا لمغادرة المقاطعة، ولكن كان هنالك سببان؛ أوّلهما أن الحاكم العام (اللورد إيروين، وفيما بعد اللورد هاليفاكس) حثّني على ذلك بحيث لم أستطع الرفض، وثانيهما لقد ترأستُ المكتب الوزاري في الولاية مدة عشر سنوات، ورغم أن من سيخلفني سيكون شخصًا واحدًا إلا أن الجميع يتوق أن يراني خارج ذلك المكتب على ما يبدو، فالأب عندما يتقدم به العمر ينفد صبر أبنائه

المتطلعين لخلافته.

فقلت له معترضًا على كلامه: توفي والدي قبل نحو أربع سنوات، ولم يفارقني الاشتياق له لحظة واحدة. فهز رأسه وقال في لهجة جادة: الآباء مثل والدك قليلون جدًا، والأبناء مثلك قليلون أيضًا. وقد تأثرت جدًا بهذا الكلام.

أعيد انتخابي بالإجماع عام ١٩٣٠ لمجلس البنجاب التشريعي، وفي الوقت نفسه تقريبا عقدتْ حكومة جلالة الملك مؤتمر المائدة المستديرة في لندن حول الإصلاحات الدستورية الهندية، وقد رُشِّحت كأحد ممثلي الهند البريطانية، وقد أرسل حاكمُ البنجاب، السيرُ جيفري مونتمورينسي، في طلبي وحاول إقناعي بقبول منصب وزير، فقلت له إني أفضل الذهاب إلى مؤتمر المائدة المستديرة.

كان افتتاح المؤتمر في قصر سانت جيمس مهرجانًا، ورغم أن الهيئة الوطنية الهندية (Indian National Congress) قد رفضت المشاركة، إلا أن جميع الجهات الأخرى، الأميرية والهندية البريطانية، كانت ممثلة في المؤتمر، وقد ترأَّس وفد المسلمين سمو الآغا خان، وتضمن الوفد عددًا من الشخصيات المرموقة كالسيد محمد علي جناح، والأخوين علي (مولانا شوكت علي ومولانا محمد علي)، والسير محمد شفيع وابنته بيغَم شاه نواز، والسير أحمد سعيد خان، ونواب تشهاتاري، والسير سيد سلطان أحمد، والسير عبد الحليم غزنوي، ونواب السيد عبد القيوم خان، وعدد آخر. ولقد كان امتيازًا أن أكون مع ممثلي المجموعة الأميرية وممثلي الهنود

البريطانيين، وكذلك العمل تحت قيادة أكرم شخصية وهو سمو آغا خان، الذي بسببه حصلت على العديد من الامتيازات في السنوات التي تلت تلك السنة.

فُضّ المؤتمر في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣١، وفي نيسان/إبريل عام ١٩٣١ عُيِّنت رئيسًا لمجلس التاج البريطاني أثناء محاكمة مؤامرة دلهي، وأقمتُ في دلهي. وقد قسمتْ أمي وقتها بين دسكه، ولاهور، ودلهي.

الأحلام والنُذر

انعقد مؤتمر المائدة المستديرة الثاني في خريف عام ١٩٣١، ورُشِّحت مرة أخرى كأحد المندوبين. كانت محاكمة المؤامرة تحرز تقدمًا بطيئًا، وقد قمت باستجواب المتهم الرئيس خلال سبع عشرة جلسة في المحكمة، وتم استجوابه من قبل مجلس الدفاع بطريقة متروّية عندما غادرتُ إلى لندن. وقد نجح الحاكم العام في إقناع الهيئة الوطنية الهندية بالمشاركة في مؤتمر المائدة المستديرة، فرشحَت الهيئةُ السيد غاندي ممثلا وحيدًا عنها، وقد أنهى المؤتمر أعماله في كانون الأول/ديسمبر، وعُدتُ إلى دلهي بينما لا يزال المتهم تحت الاستجواب.

رأت أمي في منامها أني أحتفل بزواجي بأساف، الابنة الصغرى للسير فضل حسين، فطلبتْ مني أن أسأل حضرة خليفة المسيح عن تفسير هذه الرؤيا الغريبة، فكان تفسير حضرته أني سأعاني بعض الإصابات الجسدية، وأني سأحقق رتبة عالية بدعم من السير فضل حسين.

ذهبتُ إلى لاهور أثناء عطلة المحكمة في عيد الميلاد لأكون مع أمي، وفي صباح يوم عيد رأس السنة، عام ١٩٣٢، كنت أستعدّ للعودة إلى دلهي عندما لاحظتُ أن أمي تبدو مكروبة وتنــزل من عينيها بعض الدموع خلسةً بين الفينة والأخرى، فقلقتُ من ذلك وسألتها: أيُقلقك

شيء؟ فردّت بابتسامة: لا، أنا حزينة فقط لفراقك. فاقترحتُ عليها أن ترافقني، فقالت أنها ستلحق بي بعد أيامٍ قليلة.

بعد أن غادرت "مودل تاؤن" توقفتُ عدة دقائق في لاهور لرؤية صديقٍ لي، وعندما ودّعته وكنت على وشك فتح الباب الخلفي للسيارة اقترح عليّ أن أجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق للمزيد من الراحة لأن الرحلة طويلة، وفتح لي الباب الأمامي، فجلست في السيارة بعد الساعة ١,٣٠ بوقت قصير. وعندما كنا بين مدينتي كَرْتار بور وجالندهر، انحرفتْ سيارة كانت أمامنا عن المعبّد من الطريق إلى الجزء غير المعبّد، مما أدى إلى تصاعد غيمة كثيفة من الدخان، اصطدمت سيارتنا بعربة تجرّها ثيران، مما أسفر عن مقتل واحد منهم، وتحطّم راديتور سيارتنا، كما حطّم قضيبُ عربة الثيران زجاجَ سيارتنا الأمامي، وضُرب الجانب الأيسر من وجهي مما جعلني أدوخ للحظات، وانتُزع جلد خدي وخرج عظمه، وانخلع التجويف الذي حول عيني اليسرى، ولكن لم تصب عيني بأذى، كما انحنى الحاجز الأنفي وشُقّت شفتي العليا، وفقدتُ عدة أسنان، ونـــزف الدم بغزارة. ولحسن الحظ نجا السائق دون أن يصاب بأذى.. توقفتْ شاحنة كانت تمر قربنا ونقلتْني إلى المستشفى المدني في جالندهر حيث ضمّد طبيب جروحي وعالج إصاباتي بطريقة جيدة جدًا، وخُصِّصت لي غرفة في المستشفى، وتكرم الشيخ غلام دسْتغير، وهو محامٍ صديق لي في البلدة، ببذل أقصى جهده لراحتي. وقد أُبلغتْ أمي بذلك هاتفيًّا، فوصلت المستشفى في منتصف

الليل تقريبًا، وكان ردّ فعلها الأول أن شكرت اللهَ تعالى بعميق الامتنان أنه برحمته أنقذني من الموت، ثم أخبرتْني أن قلقها وكربها حين كنت أغادر لاهور كان بسبب رؤيا رأتها في الليلة السابقة؛ حيث رأت سحابةً سوداء ظهرت فجأة وغطت كل شيء، ثم لمع البرق منها، وبعد ذلك انجلى كل شيء، فقال الناس إنه لم ينجم عن ذلك ضرر كبير، ولكن تضرر المنـــزل المجاور. ثم لاحظتْ أن بقعة سوداء ظهرت على الجدار الخارجي لغرفتي حين لمع البرق. فأخرجت الصدقاتِ بعد هذه الرؤيا، ولكنها كانت قلقة.

بعد يومين في مستشفى جالندهر انتقلتُ إلى مستشفى "ميو" في لاهور، حيث بقيت مدة عشرة أيام، ثم سُمح لي بالذهاب إلى منـــزلي في "موديل تاؤن"، وشفيت إصاباتي بصورة مُرْضية. وفي مساء يوم السادس عشر من كانون الثاني/يناير، ارتفعت درجة حرارتي فجأة وأُصبت بحمى شديدة، وشعرت بأني أُصبت بنوبة ملاريا مفاجئة ستهدأ بسرعة، ولكن أمي اضطربت كثيرًا وشغلتْ نفسها بالتضرع والدعاء لله تعالى، وبقيت معي حتى منتصف الليل حيث أصبحت درجة حرارتي طبيعية، ولما اطمأنت علي أخبرتني عن سبب اضطرابها المفرط فقالت: عندما كنا في جالندهر رويت لك جزءًا من الرؤيا فقط، أما الجزء الثاني الذي لم أرْوِه لك فكان أني رأيت نفسي ذاهبة مع بعض نساء الأسرة إلى سطح المنـــزل المجاور ونـــزلنا إلى المنـــزل، فتحدثنا مع أهل المنـــزل لبعض الوقت، وفي العودة صعدنا إلى سطح منـــزلهم، وحين

كنت على وشك أن أخطو نحو السطح تراجعتُ حيث استرعى انتباهي أن السقف قد اختفى و لم يبق منه سوى عدد قليل من العوارض الخشبية العارية، فحذرتُ رفيقاتي بأن السقف ينهار، وأعربتُ عن دهشتي في أن السقف كان يبدو جميلاً ومزينًا طالما كنا في الغرفة، أما الآن فقد دمِّر كل شيء، ثم استيقظتُ. وحين ارتفعتْ درجة حرارتك هذا المساء فجأةً خشيتُ أن الجزء الثاني من رؤيتي على وشك أن يتحقق، فقلقت، والحمد لله على سلامتك.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٢، وصلتْ برقية من بهار تخبرنا أن والد زوجتي، شمشاد علي خان، قد قُتل وأن جثته نُقلتْ إلى قاديان ليدفن هناك. هذا الأمر ذكّرني برؤيا لي قبل عشرين سنة عندما كنت طالبا في لندن، في بداية كانون الثاني/ يناير عام ١٩١٢. رأيت في المنام أن أحدهم أعطاني قطعة من الورق كُتب عليها باللغة الأردية: شمشاد علي خان الذي كان مركز الكثير من الآمال وافتْه المنية في السادس عشر من هذا الشهر. هناك دلالات كثيرة وراء هذا، فعندما استيقظت دوّنت ذلك في دفتر ملاحظاتي. كان شمشاد علي خان حينها طالبًا في الكلية الحكومية في لاهور. كنا أصدقاء حميمين وكنا نتراسل بصورة منتظمة، وكان متزوجًا وله ابنة، وُلدت في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩١٠، وحين رأيت تلك الرؤيا كانت تزيد قليلا عن عام واحد فقط من العمر. كتب لي شمشاد علي خان في إحدى رسائله أنه رأى في الرؤيا أنني أداعب طفلته. كانت أمي تحب

شمشاد علي خان كواحدٍ من أبنائها، وكان منـــزله قريبًا من منـــزلنا.

في اليوم التالي ذهبت من لاهور إلى أمرتسار، ومن هناك رافقتُ جسده إلى قاديان، وبعد أن انتهى ذلك الواجب الحزين، ذهبتُ إلى دلهي واستأنفت عملي رئيسًا لمجلس التاج البريطاني في قضية المؤامرة، وكانت أمي كلما سنحتْ لها الفرصة أثناء رحلة ما تمر على جالندهر لتصلي ركعتين شكرًا لله تعالى الذي أنقذ حياتي برحمته.

وعندما تأجلت المحكمة بسبب عطلة عيد الفصح ذهبتُ إلى لاهور لأكون مع أمي، وهناك تلقيت رسالة أن السير فضل حسين يرغب في مقابلتي في "شِمْله" على طريق عودتي إلى دلهي. فعندما وصلت "شِمله" وجدت أن الرجل كان مريضًا في السرير، وبينما كنت في غرفته أخبرني أن حالته الصحية التي ظلت على حالها منذ سنوات، قد تدهورت، لذلك اضطر إلى طلب إجازة لمدة أربعة أشهر، وأنه أوصى الحاكم العام (اللورد ولنْغْدن) أن أتولى أنا مهام منصبه أثناء غيابه، وقد وافق الحاكم العام على ذلك. وكان هذا يعني أنه يجب أن أستقيل من منصبي في مجلس التاج البريطاني في قضية المؤامرة. كان المتهمون في القضية مجموعة من الشباب الإرهابيين المتعلمين، الذين عَيّنوا محاميًا من اختيارهم للدفاع عنهم على نفقة الحكومة، وكانوا يلجأون إلى جميع أنواع الحيل وإلى كل وسيلة يظنون أنها قد تعرقل المحاكمة وتحبط الادعاء. في نهاية آخر يوم من مثولي أمام المحكمة، قدّم كل من الرئيس ومحامي الدفاع تعليقات الوداع التقليدية، وأشار اثنان من المتهمين إلى أنهما يرغبان أيضًا في قول

شيء. فخفتُ أن تكون تعليقاتهم محرجة لي، لكني فوجئت حين قالا: نضم صوتنا إلى ما قاله محامينا. ليس لدينا مؤهلات نستطيع بها التعليق على المقدرة القانونية لمحامي مجلس التاج البريطاني، ولكننا نود أن نعترف أنه قد أدار قضية الادعاء بنـــزاهة.

وكان أحدهما قد أُفرجَ عنه بكفالة، فجاء لمحطة السكة الحديد ليودّعني شخصيًا.

ذهبت من دلهي إلى لاهور للقاء السير فضل حسين الذي كان مدعوًا للغداء في اليوم التالي من قبل أصدقائه والمعجبين به، فسألته إن كان لديه أية تعليمات لي، فقال: لا يمكنني أن أقول لك دائمًا ما عليك فعله، عليك أن تسبَح بنفسك أو تغرق.

ترقيتُ فجأة، بمحض فضل الله، إلى أعلى منصب في الدولة من دون أي خبرة سابقة في الإدارة العامة. كان ملجأي الوحيد هو السعي وراء التوجيهات الإلهية من خلال الدعاء. عندما وصلت إلى "شِمله" وجدت أن هناك اجتماعا لمجلس الوزراء بعد ظهر اليوم حيث سيقدَّم في الاجتماع مشروع رسالة تفويض وزارة الدفاع إلى وزير الدولة لشؤون الهند فيما يتعلق بالتعديلات الدستورية المقترحة، ولم أكن أعرف عن مسألة الدفاع شيئًا، ولم يكن أحد من المقربين مني مؤهلاً لأستشيره حول هذا الموضوع. فبدأتُ بدراسة الرسالة، ولما تقدَّمت في دراستها وجدتها وثيقة جذابة يمكنني فهمها دون صعوبة كبيرة، فشعرتُ أنه يمكن

تحسين أربعة أشياء منها بشكل طفيف، فأشرتُ بعلامة صغيرة على هامشها.

في الاجتماع كان يساعد القائدَ الأعلى السير فيليب ستيورد رئيسُ هيئة الأركان الجنرال ويجرام. عندما جاء دوري قدمت الاقتراحات حول الأماكن التي أشرت إليها أثناء دراستي الرسالة، وكنت في كل مرة ألاحظ الجنرال ويجرام يبتسم ويومئ برأسه تقديرًا، ثم استند إلى الأمام وهمس للسير فيليب الذي أفاد بالقبول.

خرجت من الاجتماع وأنا أشعر أنني بفضل الله تعالى، اجتزت أول اختبار بنجاح، وبالإضافة إلى ذلك، كما اتضح، فزتُ بصداقة ودعم السير فيليب ستيورد، التي نفعتني جدًا في بعض اللحظات الحاسمة.

وفي السياق المناسب وُضع مشروع رسالة تفويض وزارة الداخلية أمام مجلس الوزراء، فاعترضتُ على إحدى القضايا في المشروع، ووافق على اعتراضي بقية أعضاء مجلس الوزراء، وكنت قد ذيّلت اعتراضي على الرسالة، فعلّق وزير الدولة بقوله: الحل الوحيد المعقول والممكن عمليًا لهذه المشكلة الصعبة هو الحل المبيَّن في فقرة الاعتراض.

كانت أمي معنا في "شِمله"، وفي وقت متأخر من مساء الأول من تموز/ يوليو عام ١٩٣٢، تلقيت برقية من لاهور أرسلها أخي أسد الله خان، يخطرنا فيها أن ابن عمنا تشودري جلال الدين، نائب مدير عام مكتب البريد، الذي كان مقربًا جدًا من أمي، قد توفي بعد ساعات قليلة من المرض. كانت أمي هادئة تلك الليلة، فارتأيت وتشودري بشير

أحمد، الذي كان معي عندما تسلمت البرقية، أن نؤجل نقل الخبر الحزين إليها حتى الصباح، حتى لا نزعجها تلك الليلة. وقد ذهبتُ إليها في صباح اليوم التالي، فوجدتها مستريحة في السرير والقلق بادٍ على محياها، فسألتها عن السبب فقالت إنها قلقة بسبب اثنتين من الرؤى رأتهما الليلة السابقة؛ حيث رأت في الأولى والدي يساعد أحد أفراد الأسرة الذي لم تستطع تمييزه لأنه كان ملفوفًا بملاءة بيضاء أسفل الدرج. ثم استيقظتْ، وعندما نامت مرة أخرى رأت شخصا يقدم لها دفتر مذكرات، ولما استفسرتْ عن هذا الدفتر أخبروها أن جلال الدين قد انتقل، وهذا دفتر حسابه. فقلت لها: إذًا قد لا يكون من المناسب لك السفر اليوم، فصرخت: لماذا، ما الذي حدث؟ فأخبرتُها بوفاة ابن عمي.

أثناء الحكم البريطاني في الهند رابطَ عددٌ من الوحدات العسكرية البريطانية في الهند، وتحملت الهند مرتباتهم وغيرها من المصاريف وأدرجت في ميزانية الدفاع عن الهند، كما تحملت الهند نسبة معينة من النفقات التي أنفقتها بريطانيا فيما يتعلق بتوظيفهم وتدريبهم، وقد سُمّيت هذه النفقات بضريبة الرؤوس. ألحّت الهند على بريطانيا لبعض الوقت أنه يشقّ عليها تحمُّل معدّلات ضريبة الرؤوس؛ فتقرَّر تعيين محكمة لدراسة هذه المسألة وتقديم تقرير عن ذلك. كانت المحكمة تتألف من رئيس المحكمة العليا من أستراليا، واثنين من بريطانيا واثنين من القضاة الهنود كأعضاء، وكانت المحكمة ستنعقد في لندن خلال فصل الخريف، وقد ذكر لي الحاكم العام أن السير فيليب ستيورد متحمس

لأن أقوم أنا بتقديم قضية الهند إلى المحكمة، ولكن السير صمويل هور، وزير الدولة لشؤون الهند، يرغب بأن أحضر مؤتمر المائدة المستديرة الثالث، الذي سيعقد في نفس الفترة تقريبًا. فاخترت الذهاب إلى مؤتمر اجتماع المائدة المستديرة.

قدّمتْ حكومةُ صاحب الجلالة الكتاب الأبيض إلى البرلمان بعد المؤتمر تُبيّن فيه مقترحات بشأن الإصلاحات الدستورية الهندية التي أُخذت في الاعتبار، ورُفع التقرير إلى لجنة مختارة مشتركة من المجلسين التشريعيين، ودعت اللجنة وفدا هنديا إلى مشاركتها في استجواب الشهود، وكنت عضوًا في الوفد. بدأت اللجنة جلساتها في ربيع عام ١٩٣٣، وبسبب العطلة تأجلَ استجواب الشهود إلى الخريف. وقد ترأستُ وفدا هنديا صغيرا خلال عطلة اللجنة إلى مؤتمر علاقات الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية) الذي كان يعقد في تورنتو في كندا.

عُيِّنتُ عام ١٩٣٤ خلفًا للسير فضل حسين حاكما عاما تنفيذيا للمجلس بعد انتهاء فترة ولايته في ربيع عام ١٩٣٥.

وقد تعبتْ زوجتي من غيابي المتكرر عن المنـــزل، لذلك طلبتْ من أمي أن تنصحني في أن أخفّف السفر إلى الخارج، لكن أمي رفضت اقتراحها قائلة: هو يعرف ما يجب عليه فعله، لا أريده أن يشعر بأن لدي أي رغبة في إعاقته عن أنشطته، وقد بقيت أمي برفقة زوجتي أثناء غيابي.

كانت والدتي في باحة المنــــزل الداخلية بعد ظهيرة أحد أيام عام ١٩٣٣ حين رفعتْ عينيها نحو منــــزل مجاور لنا تحت الإنشاء، ولاحظت أن أحد البنّائين يشير نحو باحة منــــزلنا الداخلية ويقف بجانبه عامل، فتخيّلت للحظة أن البنّاء ربما يشير إلى العامل أن الدخول إلى المنــــزل ليلا سهلٌ من خلال تسلُّق جدار الباحة الداخلية، ثم شعرتْ بالندم لأنها ظنت سوءًا بعاملين فقيرين نــــزيهين، ثم تضرعتْ إلى الله تعالى أن يصفح عنها هذا التقصير. وفي نفس الليلة بينما كانت نائمة في الشرفة المطلّة على الباحة الداخلية، شعرتْ أن شخصًا جلس بهدوء على حافة سريرها، ثم رُفع أحد أطراف الناموسية، وبدأتْ يدٌ تتحسس واحدةً من أساورها الذهبية الثقيلة، فجلست وقالت: من أنت؟ وصرختْ منادية أن تُنار الأضواء. ففرّ السارق بسماع ندائها. وعندما أنيرت الأضواء سقط في الفناء، فتبعتْه موبخةً إياه بشدة على صفاقته في انتهاك حرمة غرف حريم المنــــزل. فارتبك، وتراجع نحو جدار الفناء بينما ظلت تلاحقه وهي تنادي على الخدم، وأدركت أنها كانت في خطر كبير وأن المعتدي يمكن أن يقضي عليها بضربة واحدة، ولكن وهبها الله تعالى الشجاعة فلحقت به حتى جدار الفناء، وفي غضون ذلك وصل أسد الله خان والخدم ووجدوا الرجل على أعلى جدار الفناء، فأمسكوا به وطاردوا اثنين من رفاقه اللذين كانا بانتظاره في الخارج وأمسكوا بهما. وقد تبين لأمي أنهم العمال الذين رأتهم بعد الظهر. فسُلّموا إلى الشرطة وقُدِّموا للمحاكمة بتهمة اقتحام منــــزل.

شعرت أمي بالأسى لما حدث لهم، وأعربت عن أملها في أن لا تساء معاملتهم بالسجن، لأنها تشعر بأنهم عمال فقراء استسلموا بلا تفكير إلى نــــزوة الإثم. وقد ارتعد الرجل الذي دخل إلى الباحة حتى من امرأة، فرأت أن سجنه ثلاثة أشهر أو أربعة كافٍ لمعاقبته، أما الاثنان الآخران فيجب إطلاق سراحهما. حكَم القاضي عليهم جميعًا بالسجن مدة عام.

وفي هذه المرحلة عدت إلى المنــــزل وروت أمي لي الحادث وحثْتني على فعل شيء لتخفيف الحكم، فقلت لها إني لا أستطيع فعل شيء لأن الاستئناف في قضيتهم قيد النظر أمام قاضي محكمة المدينة، وإذا هم وثقوا بي فإنني مستعد لأن أقوم بالمرافعة عنهم في الاستئناف مجانًا، وربما سيؤدي ذلك إلى تساهل القاضي معهم على اعتبار أني أناشده الرحمة تجاههم، ولكن سيكون ذلك محرجًا لي، لأن القاضي قد يظن أني أرافع في قضيتهم لأحصل منهم على المال، ثم إنه لكي أساعدهم لا بدّ لي من أن أنقض إفادة أسد الله خان (شقيقي) والخدم.

قالت أمي: لا أريد أن أضعك في هذا الموقف، بل فكِّر في حلٍ آخر.

قلتُ: إذا رُفض الاستئناف ورَفضت المحكمة العليا تعديل الحكم فيمكنني أن أطلب من الحاكم تخفيف عقوبتهم.

قالت: إنها لا ترى ذلك مناسبًا أيضًا، فقررت الدعاء لهم وواصلتْ تضرعاتِها لله تعالى من أجلهم طوال فترة انتظار الاستئناف.

خفف القاضي حكم الجاني الرئيسي إلى السجن أربعة أشهر، ورفيقيه الآخريْن إلى مدة السجن التي قضوها حتى إعلان هذا الحكم. وقد سُرَّت أمي بهذا الحكم، وحمدت الله على رحمته بهؤلاء الجناة.

في ربيع عام ١٩٣٤ رأت رؤيا غريبة تحققتْ من عدة نواح. لقد رأت أنها في غرفتها، ورأت من خلال نافذة الغرفة أن كرة من الضوء تتأرجح ببطء عبر النافذة من اليمين إلى اليسار مثل رقاص الساعة، وعندما وصلت إلى وضع عمودي أمام النافذة صدر عنها صوت مهيب جدًا وسُمعتْ عبارة بالبنجابية: سيكون ظفر الله خان بن نصر الله خان رئيس المحكمة العليا. ثم تأرجحت الكرة إلى اليسار ثم عادت لليمين، وعندما وصلت للوضع العمودي أمام النافذة مرة أخرى، تكررت نفس العبارة بطريقة تأكيدية، ثم تكررت الظاهرة للمرة الثالثة. وبعد ذلك استيقظتْ.

روت لي هذه الرؤيا، ومهما كان التفسير، فإن بعض الأمور كانت واضحة، النور، وجلالة الصوت، والتأكيد على "سيكون" تشير جميعها إلى أن ما كان يجب أن يحدث سيحدث رغم ما يبدو من استحالته، وإن تحديد هويتي بأن والدي اسمه "نصر الله" يعني أن ذلك لن يتحقق بشكل طبيعي، بل بفضل الله المحض، كما يعني ضمنًا أنني خلال الفترة الفاصلة، وبفضل الله تعالى، لن أكون مغمورا أو معوزا.

تحققت الرؤيا عام ١٩٧٠، بعد ست وثلاثين سنة من رؤيا أمي، وبعد اثنتين وثلاثين سنة من وفاتها. ولم تنشأ هذه المحكمة التي تحققت من

خلالها الرؤيا إلا في ٦ شباط/فبراير ١٩٤٦، والذي صادف ميلادي الثالث والخمسين.

إنّ تحقّقَ الرؤيا وتاريخ تحقّقها وكيفية تحقّقها تقدِّم لعالَم اليوم المتشكِّك والمادي دليلاً إيجابيًا لا يُدحَض على وجود الله العليم القدير الذي تمكنتْ خادمتُه البسيطة الأُمّيّة- التي لا تملك سوى خشية الله وحبّه ﷻ – من إقامة صلة مباشرة معه ﷻ.

لقد كان تحقّق الرؤيا ذروةَ حياتي المهنية، وقد يكون مفيدًا ذكر الحوادث ذات الصلة في حياتي المهنية والتي اختصرت في هذا السياق.

تحقُّق الرؤيا (أ)

أصبح "السير شادي لال" رئيس قضاة محكمة لاهور العليا عام ١٩١٩، وقد كان ماهرًا جدًا وبعيد النظر. أقنعتني بعض المؤشرات أنه مصمّم على عرقلة حياتي المهنية قدر استطاعته. وفي بداية ربيع عام ١٩٣٠ أخبرني السير فضل حسين أن الحاكم، السير جيفري دي مونتمورينسي، بذل كل جهده لإقناع السير شادي لال رئيسِ القضاة ليوصي بتعييني في هيئة المحكمة العليا، ولكنه لم يوافق. وفي الوقت نفسه تقريبًا كتب لي أخي أسد الله خان، الذي كان يدرس الاختصاص في القانون في إنجلترا، أن السيد جستيس هاريسون، وهو واحد من كبار القضاة في محكمة لاهور العليا وكان في إجازة في إنجلترا، قال له إن السير شادي لال لن يوصي بتعييني في مقعد هيئة المحكمة العليا.

عيِّن السير شادي لال عضوًا في اللجنة القضائية التابعة لمجلس الملكة السري في ربيع ١٩٣٤، وكان عليه مغادرة المحكمة العليا في أيار/ مايو من ذلك العام. وفي نيسان/إبريل أرسل في طلبي، وكان هناك في ذلك الوقت مكان شاغر في هيئة المحكمة العليا، وشعرت أن رئيس المحكمة العليا يميل الآن للتوصية بتعييني فيه، وأكد لي هذا تشودري شهاب الدين، وحثني على أن أمرّ على السير شادي لال الذي كان يتوق إلى رؤيتي، فقلت له إني لم أعدْ مهتمًا بمقعد الهيئة، وطلبتُ منه أن يخبر

رئيس المحكمة العليا بذلك.

عين السير دوغلاس يونغ، وهو قاض من المحكمة العليا في "إله أباد"، رئيسَ قضاة محكمة لاهور العليا خلفًا للسير شادي لال، وعند أول يوم أحد عقب تولّيه منصبه أرسل في طلبي، وبادرني مباشرة بعد أن ألقيت عليه التحية بالقول: حضرة تشودري، لماذا لا تأتي وتكون معي في الهيئة؟ فشكرته على عرضه اللطيف، وأخبرته أني لا أقدر على قبوله. فقال: إذا غيّرت رأيك، فأعلْمني، وسأوصي بتعيينك في أول مقعد شاغر يُتاح. وكان من اليوم الأول لطيفًا معي للغاية، ولم أخسر قضية في محكمته.

في أيار/مايو عام ١٩٣٥ خلفتُ السيرَ فضل حسين في عضوية المجلس التنفيذي للحاكم العام، وكانت مدة العضوية خمس سنوات، وعند انتهاء هذه الفترة في أيار/ مايو عام ١٩٤٠ أعيد تعييني لفترة ولاية كاملة بموجب أمر ملكي جديد، ولم يحدث مثل هذا الأمر من قبل في خلال السنوات المائة والثلاث والستين من الحكم البريطاني.

في آذار/ مارس عام ١٩٤١ توفي السير شاه سليمان القاضي المسلمُ في المحكمة الفيدرالية (العليا لاحقًا) في الهند، وأخبر السيرُ جوير موريس رئيسُ قضاة المحكمة الفيدرالية الحاكمَ العام أنني المسلم الوحيد الذي يوصي به لملء المنصب الشاغر، فقال الحاكمُ العام، اللورد لينليثجو، إنه لا يرغب بذلك ويريد استبقائي. وبما أن خلافهما لم يحلّ على الفور، فقد عُيّنَ السيرُ جون بيومونت، رئيسُ قضاة المحكمة العليا في مومباي،

قاضيًا بالنيابة وبصفة مؤقتة في المحكمة الاتحادية، ولم أكن على علم بالخلاف الحاصل بين الحاكم العام ورئيس القضاة.

في العاشر من يونيو/حزيران رأيت في الرؤيا أني كنت أعمل في مكتبي في إقامتي الرسمية في "شِمله" عندما فتح أخو زوجتي، واسمه عنايةُ الله، البابَ المطل على الشرفة فجأةً ودخل بابتسامة عريضة تعلو وجهه. كانت الرؤيا قوية جدًّا للغاية وقد تركت في داخلي انطباعًا عميقًا بحيث أني سارعت في تحضيراتي في الصباح تحسبًا للقائه على الفطور، وعندما استعددت لذلك أدركت أنني رأيته فقط في منامي وأنه لم يصل بجسده.

وبعد يومين التقيت بصديقي إنعام الله في الرؤيا. وقد تأثرتُ بتسلسل هاتين الرؤيتين، وكان لدي شعور بأنهما بشيرُ خيرٍ. وفي الرابع عشر من حزيران/يونيو، التقيت في الرؤيا برجلٍ يحمل نفس اسمي ظفر الله. وقد أصبحت بعد هذه الرؤيا على يقين من حدوث تغيير ما،
واستعد عقلي لقبول هذه التغييرات والترحيب بها بوصفها نعمة إلهية ووسيلة للنجاح، ذلك أن عناية الله تعني العناية الإلهية، وإنعام الله يعني النعمة الإلهية، وظفر الله يعني وسائل النجاح أو النصر الذي يمنحه الله.

وصل شيخ إعجاز أحمد وتشودري بشير أحمد من دلهي يوم الأحد الخامس عشر من حزيران/يونيو لقضاء عشرة أيام من العطلة الصيفية، وقلت لهما إن تغيرًا كبيرًا سيحدث قريبًا في حياتي المهنية. فسألاني عما إذا كنتُ قد شاهدت رؤيا، فرويت لهما الرؤى الثلاث. كان يوم الاثنين موعد لقائي الأسبوعي مع الحاكم العام، وقلت لسكرتيره الخاص عبر

الهاتف إنني لا أنوي القدوم اليوم إذ ليس لدي ما أقدمه أو أبحثه مع سعادته. فقال لي إن سعادته يرغب في التحدث معك. وعندما وصلتُ إليه ذكر لي الخلاف الذي نشأ بينه وبين رئيس المحكمة العليا حول التعيين في المقعد الشاغر في المحكمة الفيدرالية، وأضاف: وأخيرًا، اتفقنا على ترك الخيار لك؛ فإذا كنت ترغب في البقاء معي -كما آمل- فعلى رئيس المحكمة أن يبحث في مكان آخر عن زميل لملء المقعد الشاغر. فإذا كنت ترغب في الذهاب إلى المحكمة، فلا بد لي أن أعوّد نفسي على تحمّل هذه الخسارة؛ ففكِّرْ مليًا في الأمر، وأخبرْني بقرارك عندما تأتي لمقابلتي في الأسبوع القادم.

- سيدي، لا حاجة لي للتفكير مدة أسبوع، أستطيع أن أخبركم الآن.

- آه، أنا سعيد جدًا، لا ترغب في الذهاب؟!

- لا، يا سيدي، بل أودّ أن أذهب.

- أشعرُ بخيبة أمل كبيرة جدًا، لكني قد أعطيتُ كلمتي لرئيس المحكمة ولا بد أن أفي بوعدي، فهلاّ وثقتَ بي؟ لا يزال لديك من فترة ولايتك الثانية في المجلس حوالي أربع سنوات، ويمكنك أن تتطلع إلى أي شيء ترغبه في ظل التقدم الجوهري الذي أحرزتُه في مجال السلطة التنفيذية وفي هذا السن، فهل لي أن أعرف سبب رغبتك في الذهاب في الموضع الخلفي المنعزل للمحكمة ودفنِ نفسك؟

– ربما هي مسألة مزاج، عندما أعمل مع القانون أشعر أنني في منـــزلي أكثر مما أشعر به عندما أعمل مع الإدارة.

– كما يحلو لك، ولكن أرجو أن لا تَسرّعَ في تركنا.

– المحكمة في إجازة الآن، وسوف تعود للعمل في بداية تشرين الأول/ أكتوبر، وسأكون سعيدًا في البقاء هنا حتى نهاية أيلول/ سبتمبر.

– هذا يشعرني ببعض الراحة.

كان اللورد لينليثجو رئيسًا للجنة الاختيار المشتركة بين كل من مجلسَي البرلمان التي أنشئت عام ١٩٣٣ من أجل النظر في تقرير الكتاب الأبيض الذي قُدّم للبرلمان والذي يتضمن مقترحات بشأن الإصلاحات الدستورية في الهند، وقد كنتُ عضوًا في الوفد الهندي الذي كان مرتبطًا بلجنة الاختيار المشتركة خلال مرحلة استجواب الشهود، وعرفتُ أن الرئيس يقدر مساهمتي في عمل اللجنة.

خلَف اللوردُ لينليثجو اللوردَ ولنْغْدن في منصبَي نائبِ الملك والحاكمِ العام للهند عام ١٩٣٦، وكنت آنذاك عضوًا في المجلس التنفيذي للحاكم العام الذي كان لطيفًا معي دائمًا، وقد شجعني ومنحني ثقته. لم أكن أحب تخييب أمله في الذهاب للمحكمة الفيدرالية، لكني كنت على قناعة بأن الرؤى الثلاث كانت توجيهًا إلهيًّا وأن عليّ الامتثال له. وعلى الرغم من خيبة أمله الحقيقية، إلا أنه لم يسحب ثقته مني. وقد تم توسيع المجلس التنفيذي والوزارتين اللتين لي علاقة بهما؛ وزارة القانون ووزارة

التموين امتثالًا لاقتراحي، ليديرهما عضوان. وطلب مني الحاكم العام أن أقترح الأسماء المناسبة لخلافتي في منصبي والذين يقبلون أيضًا باقتراحاتي، ثم أوعز لي أن أدبر قبولهم بسرية، وهذا ما قمت به.

وفي شباط/فبراير عام ١٩٤٢ قام الرئيس الصيني تشينغ كاي شيك، بزيارة رسمية لنيودلهي. ومن بين المسائل التي اتفق عليها مع نائب الملك إنشاءُ علاقات دبلوماسية مباشرة بين الدولتين. وفي آذار/ مارس كتب لي اللورد لينليثجو رسالة طويلة بخط يده يحثني فيها على الذهاب إلى "تشنغ كينغ" مدة ستة أشهر بتفويض من المحكمة، لافتتاح مركز دبلوماسي هندي هناك، حيث كانت الصين قد اضطرت إلى نقل عاصمتها إلى "تشنغ كينغ" نتيجة ضغط الهجمات اليابانية.

وصفتْ رسالته بشيء من التفصيل كلَّ الأمور التي تنطوي عليها هذه المهمة. فكانت تشنغ كينغ هدفًا لقصف عنيف من قبل اليابانيين خلال الصيف وكانت معرضة لخطر كبير، فلا أقدر على أخذ زوجتي وابنتي معي، وحيث إن راتبي باعتباري قاضيًا أكثر من راتب وعلاوات السفير البريطاني في تشنغ كينغ، فلن أتلقى أي علاوات وسأكون برتبة سفير بلقب مفوّض عام؛ ومع كل ذلك أعرب اللورد لينليثجو عن أمله في أن أقبل المهمة المقترحة، لأنه على قناعة بأن أحدًا لن يستطيع الاضطلاع بمسؤوليات هذه المهمة مثلي.

أقلقتْني رسالته بشكل كبير. فقد كنت عضوا في الحكومة أعمل تحت ضغط كبير منذ عام ١٩٣٥ حتى ١٩٤١، وكنت أتطلع وقتها إلى أخذ

أول إجازة في سبع سنوات، وكنت قد استأجرتُ وعائلتي بيتًا صغيرًا في "جُلْمَرْج" في كشمير وأثّثْناه بما يتناسب مع متطلبات إجازتنا الصيفية. أما حالة "تشنغ كينغ" ومناخها المرهق وحرمانها القاسي نقيضًا لافتًا لحال "جلمرج"، فلم يكن هناك شيء يجذبني في المهمة المقترحة؛ فقد نفرتُ من كل جانب من جوانبها.

كانت دعوة اللورد لينليثجو تدل على ثقة كبيرة. لقد كان يشعر بخيبة أمل من أنني اخترتُ الذهاب إلى المحكمة، فانتهزتُ الفرصة لأؤكد له تقديري لثقته وبموافقتي.

كان الجزء الأكبر من غيابي في تشنغ كينغ خلال عطلة المحكمة، وعند عودتي كانت هناك مسألة واحدة صغيرة فقط جاهزة للنظر فيها، وعندما سُوِّيَ أمرها طلب مني أن أقود الوفد الهندي إلى مؤتمر العلاقات السلمية المزمع عقده في مونت ترمبلانت، وهو منتجع للتزلج في جبال لورينتيان، في مقاطعة كيبيك، في كندا. كانت الرحلة عبارة عن أسفارٍ طويلة نظرًا لظروف الحرب. لقد كانت محنة لحد ما، حيث ذهبت من كراتشي إلى القاهرة (ثلاثة أيام)، ثم إلى وادي حلفا، فالخرطوم، فجينجا (في أوغندا)، ثم ستانليفيل (في الكونغو)- ليوبولدفيل - لاغوس (ثلاثة أيام) أكرا (يومين) — ناتال (البرازيل) - جورج تاون (غينيا البريطانية) - ميامي — نيويورك (أربعة أيام) - مونتريال -ثم مونت ترمبلانت.

تلقيت بعد المؤتمر الأول طلبًا من أمين الدولة لشؤون الهند، السير إيميري، أن أذهب إلى لندن لإجراء مشاورات حول التغييرات الدستورية

في الهند. كانت هذه الرحلة بطائرة عسكرية من مونتريال إلى غلاسكو، وقد احتُجزنا في مونتريال مدة ثمانية أيام بسبب عاصفة ثلجية عنيفة.

وصلتُ لندن في ٥ كانون الثاني/يناير عام ١٩٤٣. كانت الحياة في لندن بسبب الحرب خاضعة للقيود و لم تكن مريحة.

استغرقت المحادثات وقتًا أطول من المتوقع، فغادرتُ لندن في بداية آذار/مارس. كانت رحلة العودة عن طريق بول — شانون — لشبونة- باثوريست (غامبيا) — لاغوس (توقفت فيها ثلاثة أيام وضعتُ خلالها حجر الأساس لمسجدٍ أحمدي)- ليوبولدفيل- إليزابيثفيل — جينجا- الخرطوم (حيث توقفت يومين) - القاهرة ثم كراتشي.

في ربيع عام ١٩٤٥ قمت -بصفتي رئيسَ المعهد الهندي للشؤون الدولية- بقيادة الوفد الهندي إلى مؤتمر علاقات الكومنولث الذي عقد في تشاثام هاوس، ساحة سانت جيمس، في لندن. قدَّمتُ في الجلسة الافتتاحية مناشدة عاطفية لاستقلال الهند، والتي طوَّرتُها في خطابي في المأدبة التي أقيمت مساء اليوم نفسه. هذان الخطابان كانا بداية المرحلة الأخيرة من العملية التي بلغت ذروتها في تقسيم الهند وإنشاء باكستان.

أعلن السيد أتلي، رئيسُ وزراء بريطانيا العظمى، مخططَ التقسيم يوم ٣ حزيران/ يونيو ١٩٤٧. وقد واجهتُ فجأةً مشكلةً في اختيار ما إذا كنت سأبقى في الهند أم لا بعد تقسيمها؛ فقد كنت كبيرَ قضاة المحكمة الاتحادية وحققتُ سمعة طيبة بسبب وجهات نظري حول الاستقلال. وقد كانت كل الظروف تشير إلى أني سأكون أولَ رئيس قضاة

للمحكمة العليا في الهند إذا قررتُ البقاء في الهند بعد التقسيم، ولكني قررتُ بلا أدنى تردد أن لا أقيم في الهند بعد التقسيم، فاستقلتُ من المحكمة في نفس اليوم، بحيث يسري تنفيذ الاستقالة بعد أسبوع.

كان صاحب السمو نواب حميد الله خان، حاكمُ بهوبال، قاضيَ قضاة هيئة الأمراء، وكنا نعرف بعضنا البعض منذ عام ١٩٣٠، وقد طلب مني الذهاب إلى بهوبال مستشارا له في الأمور الدستورية خلال الأيام الصعبة المقبلة، فذهبتُ إلى بهوبال وبدأَتْ الأمور تتحرك بسرعة. في تموز/يوليو اتصل بي في دلهي السيد محمد علي جناح (القائد الأعظم) وطلب مني أن أقدم قضية حزب المؤتمر الإسلامي (Muslim League) في لجنة تحديد حدود البنجاب في لاهور، وقد قمت بذلك. وفي بداية أيلول/ سبتمبر دعاني إلى كراتشي وطلب مني قيادة وفد باكستان في الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة. وأصرَّ عند عودتي أن أنتقل إلى باكستان، وخُيّرت بين رئيس المحكمة العليا أو وزير الشؤون الخارجية، فاخترت الخيار الأخير. وقد تكرم صاحب السمو (نواب حميد الله خان) بالموافقة على إعفائي من منصبي الحالي. فأديت قَسَم منصبي الجديد في ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٤٧.

اعتليْتُ ذروة الموج المرتفع من الاحترام الجماهيري لأكثر من خمس سنوات، وخلال ذلك حدث حادثان مأساويّان جدًّا في باكستان؛ فقد توفي القائد الأعظم في أيلول/سبتمبر عام ١٩٤٨، واغتيل رئيس الوزراء لياقت علي خان في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥١، فأصبح الخواجه

نظام الدين، رئيسُ وزراء باكستان الشرقية، الحاكمَ العام في باكستان خلفًا للقائد الأعظم، ثم صار رئيس الوزراء خلفًا للياقت علي في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٥١. وقد كان لطيفًا وورعًا، وصاحب فكرٍ ديني، فتعاطف بسهولة مع المتشددين الذين وجدوا بذلك فرصة للتأثير على السياسة ودسّوا أنفسهم في موقع السلطة. أما الحاكم العام، ملك غلام محمد فكان صاحب عقلية قوية وكان مولعًا بالسلطة، وأصبح الاشتباك أمرًا حتميًا بينه وبين رئيس الوزراء، وكانت النتيجة تنحية الأخير في ربيع عام ١٩٥٣. وبحلول ذلك الحين كنت قد أصبحت شخصًا غير مرغوب فيه لدى المشايخ المتعصبين، فجعلوني الهدف الرئيس لعدائهم، فقدم لي رئيسُ الوزراء الجديد، السيدُ محمد علي بوغرا وزملائي في مجلس الوزراء، كاملَ الدعم والثقة، ولكن اثنين من الأعضاء الأصغر سنًا في حزب المؤتمر الإسلامي أخذا يكيدان المكائد ضدي.

وفي صيف عام ١٩٥٤، أخذتُ أشعر أن استمراري في منصب وزير الشؤون الخارجية غير مرغوب به لأصحاب النفوذ في باكستان، فقررتُ أن أستقيل، وكان رئيس الوزراء يرفض قبول استقالتي، لكنه اكتشف أن اسمي قد اقتُرح من جانب دولة أخرى لانتخابات محكمة العدل الدولية لشغل المقعد الشاغر الطارئ الذي نشأ نتيجة وفاة السيد بي إن راو، القاضي الهندي في المحكمة، في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٥٣، فوافق رئيسُ مجلس الوزراء على أن أشترك في مسابقة شغل المقعد الشاغر، وربما كان يواسي نفسه بالتفكير أن اسم مرشح هندي كان قد اقترح

لشغل المقعد الشاغر قبل عدة أشهر من اقتراح اسمي. وكان الاتجاه العام في الأمم المتحدة أنه إذا توفي قاض في تلك المحكمة فينبغي شغل المنصب الشاغر الناتج عن وفاته بانتخاب شخص من بلد المتوفى، لذلك كانت فرصة انتخابي ضئيلة، ولكني انتُخبت وأصبحت عضوًا في المحكمة اعتبارًا من يوم الانتخاب، ٧ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٤. وقد كانت فترة استلامي لهذا المنصب هي ما تبقّى من فترة ولاية السيد بي إن راو، التي كانت ستنتهي في ٥ شباط/فبراير عام ١٩٦١.

انتخبتُ نائبًا لرئيس المحكمة في ربيع عام ١٩٥٨، وانتخب القاضي هيلج كلايستاد (من النرويج) رئيسا لها. لقد كان نـــزيهًا جدًا، وكان فائق الحساسية، وحين وجدني متعاطفًا معه منحني ثقته الكاملة وأصرّ على أن أؤدي بعض المهام التي تخص رئيس المحكمة بموجب النظام الداخلي لها، وعند اقتراب نهاية فترة ولايتنا، رئيسًا ونائبًا للرئيس، كان يحوّل لي المهامّ وكأني سأكون خليفته في منصب الرئيس. فذكَّرتُه أن فترة ولايتي قاضيًا ستنتهي في الأسبوع الأول من شباط/فبراير عام ١٩٦١، فلن يكون هناك أي إمكانية في خلافتي له في رئاسة المحكمة إلا إذا انتُخبتُ ثانية في المحكمة، فعلّق بقوله: لا يوجد شك في ذلك، ومن غير الوارد أن لا يُعادَ انتخابك. ولكن حدث ما اعتبره بسبب نقاء قلبه أمرًا غير وارد. وعندما جاءت نتيجة الانتخابات أتى إلى مكتبي نائب أمين السجل في المحكمة ويعلو وجهه بعض الاضطراب وقال: لدي أخبار سيئة لك، حيث لم يُنتخب أي من القضاة ثانية.

حتى تلك اللحظة لم يساورْني قلق من أن هذه الأنباء سيئة، فطالما أنها مشيئة الله فلا بد أن أتمكن من خدمته تعالى في مجالٍ آخر، فكنت قانعًا تمامًا بما جرى.

كنت قد طلبتُ من السيدة عزيزة والترز، وهي سيدة واعية مسلمة ومتدينة جدًا، الدعاءَ لأفوز في الانتخابات، فاتصلتُ بها عبر الهاتف وأخبرتُها أني لم انتُخبْ ثانيةً، فكانت إجابتها الفورية، ودون أي تعليق، أن تلتْ هذه الآيات من القرآن الكريم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٤-٦)

وفي اليوم التالي قالت لي: منذ أن أخبرتَني بنتيجة الانتخابات قد سيطرت على ذهني فكرة واحدة؛ هي أن الله تعالى قد هيّأ لك وظيفة أعلى.

تحقُّق الرؤيا (ب)

بدتْ نهاية فترة ولايتي في محكمة العدل الدولية، وكأنها نهاية حياتي المهنية العامة بعد واحد وعشرين عامًا من العمل في نقابة المحامين، حيث كنت قد شغلتُ الوظائف العامة بشكل مستمر لستة وعشرين عامًا من ١٩٣٥ – ١٩٦١، أي ما مجموعه ٤٧ عامًا. كنت قد بلغت من العمر ٦٨ عامًا، وأصبح لي الحق في الحصول على معاش تقاعدي من المحكمة يكفي لسد احتياجاتي المتواضعة. فاشتريت شقة مناسبة في كامبريدج، وقمت بتأثيثها واستقررت فيها، وكانت خطتي قضاء ثمانية أشهر من السنة في كامبريدج، وأربعة أشهر الشتاء في ربوة في باكستان حيث كنت قد بنيْت بيتًا. وقد قدّمت مخطوط كتابي الذي عنوانه "الإسلام ومعناه لإنسان العصر الحديث"، إلى مكتب التصنيف والنشر (في ربوة) الذي وافق على نشره، وقد شجّعني هذا وأمَّلَني في تقديم بعض المساهمات في مجال مقارنة الأديان.

منذ ربيع عام ١٩٣٤ وأنا مدرك لرؤيا والدتي، وقد كنت مقتنعًا بأنها رؤية حقيقية مثل كل رؤاها، ولا بد من تحقُّقها، ولم أكن أعرف تفسيرها الحقيقي، ولم أتوقع متى وكيف سوف تتحقق. ولم يكن أحد يعرف ذلك سوى الله تعالى الذي كشف الرؤى لوالدتي، لذلك لم أسمح بتأثير تلك الرؤى على أحكامي في أي وقت، وإن الملخص الموجز لحياتي

المهنية العامة المبين في الفصل السابق يكشف أني لم أكن حريصًا على اغتنام الفرص للتحقيق الحرفي للرؤى. واختياري للمحكمة الاتحادية عام ١٩٤١ لم يكن بسبب تأثري برؤيا والدتي، بل نتيجة رؤى حلمتُ بها عندها في الأسبوع السابق مباشرة، ولكن بالنسبة لهم كان يجب أن لا أتردد في تحقيق رغبة الحاكم العام.

لو اخترتُ البقاء بصورة دائمة في الهند بعد التقسيم عام ١٩٤٧ لكنتُ أولَّ رئيس لمحكمة العدل العليا في الهند؛ ففي كانون الأول/ ديسمبر من تلك السنة أُعطيت فرصة الاختيار في أن أصبح أول رئيس قضاة لمحكمة باكستان العليا، لكني فضّلت حقيبة الشؤون الخارجية، وعُيّنَ ميان عبد الرشيد رئيسًا للقضاة. وفي عام ١٩٥٢ عندما كانت ولايته على وشك الانتهاء بذل جهودًا حثيثة لإقناعي في أن يقترح اسمي خليفةً له، لكني قاومتُ كل جهوده اللطيفة تلك، ليس لأني لم أكن جاهزًا بعد لأن أصبح رئيس القضاة، بل لأنني كنت على اقتناع بأني سأتمكن من خدمة قضية باكستان بوزارة الخارجية بشكل أفضل منه في رئاسة المحكمة العليا.

الآن في الثامنة والستين من العمر لم أعُدْ مؤهلاً للحصول على منصب بالقضاء العالي في باكستان. ولو أعيد انتخابي في محكمة العدل الدولية، لكان من المحتمل، أن أخلف الرئيس كليستاد في رئاسة المحكمة، ولكن لم يتم إعادة انتخابي فحسب، بل لم يُنتخب أي من قضاة المحكمة ثانيةً، ومع ذلك لم أكن أشك للحظة واحدة في صحة رؤيا والدتي، فتركتُ

أمر تفسيرها الصحيح وتحقيقها على النحو الواجب إلى الله تعالى، العليم الرحيم.

في صيف عام ١٩٦١، توقّفَ المشير محمد أيوب خان، رئيسُ باكستان، في لندن وهو في طريقه إلى الأمم المتحدة للقيام بزيارة رسمية، وكان قد تعرّفَ عليّ منذ عدة سنوات وكنا صديقين جيدين، فبعث إليّ في لندن أنه يريدني أن أذهب إلى الأمم المتحدة ممثلاً دائما لباكستان. فقلت له لا داعي لأن يشعر أنه يجب أن يوفر لي عملاً لأني الآن بدون وظيفة. فأكد لي أنه تواق لتحسين تمثيل باكستان في الأمم المتحدة، لذلك فهو متحمس لذهابي إلى هناك. وخلال رحلة العودة أرسل لي مرة أخرى وقال إنه قد ذكر اقتراح تعييني للأمين العام للأمم المتحدة داغ همرشولد، الذي سُرّ بسماع ذلك، وأن عليّ أن أنظر إلى المسألة على أنها أمرٌ واقع وأن أرتب مع عبد القادر منصور، وزيرِ الخارجية، أَمْرَ زيارة باكستان للاطلاع على التعليمات النهائية.

وصلتُ إلى نيويورك في ١٢ آب/أغسطس، حيث كانت ستعقد الدورة السادسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر سبتمبر، وأخبرني نائبي السيد آغا شاهي، أن السيد مُنجي سليم مِن تونس والسيد علي ساتسروأميدجويو من أندونيسيا كانا المرشحين لرئاسة تلك الدورة بسبب المساعي الحميدة ليو ثونت، الممثلِ الدائم لبورما فيما بعد. وقد تم الاتفاق على اختيار منجي سليم لرئاسة الدورة السادسة عشرة، على أن يُختار علي ساتسروأميدجويو لرئاسة الدورة السابعة عشرة.

جرت الدورة السادسة عشرة، مثل سابقاتها، بتمهل وروية وامتدت حتى عيد الميلاد في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٢، وفي نيسان/ إبريل ١٩٦٢ صرّحت حكومة إندونيسيا أن علي ساتسروأميدجويو لن يرأس الدورة السابعة عشرة. فبدأت التكهنات بشأن رئاسة تلك الدورة، واقترب مني السفيرُ عبد المنعم الرفاعي، مندوبُ الأردن الدائم لدى الأمم المتحدة، واقترح أن أرشح اسمي لرئاسة الدورة المقبلة، فأجبتْه أن الدول الإفريقية – الآسيوية تشكّل الآن الغالبية في الأمم المتحدة، ويقال إنه يجري الآن محاولة تشكيل الجمعية العامة بصورة ما، لذا من الحكمة تجنُّبُ ما من شأنه أن يساعد وجهة نظر هذا الافتراض، فيجب تجنُّبُ توليةِ آسيويٍ مباشرة بعد رئيس إفريقي حسب رأيي.

– ماذا تقترح إذًا؟

– أقترح أن نسعى إلى تفاهم مع اللاتينيين بأن يتولوا الرئاسة هذا العام شريطة أن يوافقوا على تناوب الرئاسة مناصفةً بين مَن هم مِن أصل أفريقي أو آسيوي من جهة والغربيين واللاتينيين من جهة أخرى.

– سأتشاور مع ممثلي الدول العربية وأخبرك بقرارنا.

تم التوصل إلى تفاهم مع اللاتينيين، واتُّفق على اختيار السفير أماديو، مندوبِ الأرجنتين الدائم لدى الأمم المتحدة، لرئاسة الدورة السابعة عشرة. وبعد أن تم الاتفاق على ذلك بوقتٍ قصير حدثتْ ثورة في الأرجنتين، ورفض السفيرُ أماديو طَلَبَ النظامِ الجديد في الاستمرار

بتمثيل الأرجنتين في الأمم المتحدة واستقال من منصبه. وقبل أن يتفــق اللاتينيون على مرشح آخر، أعلن البروفسور مالالاســيكرا، منــدوبُ سيلان الدائم، ترشيحه لهيئة الرئاسة، وبدأت الأقــوال إن الآســيويين يستطيعون الفوز بالرئاسة لو أرادوا ذلك. وفي هذه الفترة الحاسمة أصــر عبد المنعم الرفاعي أن أرشح اسمي للرئاسة. وقــد ادعــى البروفــسور مالالاسيكرا الذي كان سفير بلاده في موسكو أن مــا بــين خمــسة وعشرين وثلاثين صوتا (من المفترض أنها الدول الشيوعية والبوذيــة) في جيبه، ولو أن مرشحًا آخر تنافس معه فسيفوز بأغلبية لا تقل عن خمسة وعشرين بالمائة. قبل افتتاح الدورة أصبح واضحًا أنني سأُنتخب رئيسا. وقد قرأت النظام الداخلي للجمعية العامة، ولكني قلقت جــدًا كيــف سأبلي بلاءً حسنًا في مقعد الرئاسة. كانت ست نقاط أو أكثــر مــن الدستور تثار في كل جلسة للجمعية العامة، وكان على الرئيس أن يحكم بناءً عليها. وقد ذهبتُ قبيل لحظة افتتاح الجمعية العامة لصلاة الظهــر، وأثناء الصلاة تضرعتُ لله تعالى بتواضع وجدية لدعمي وتوجيهي.

دعا الرئيس — الذي أوشكت فترة رئاسته على الانتهاء – لبدء الجلسة، وعند التصويت للرئاسة حصل البروفسور مالالاسيكرا على سبعة وعشرين صوتًا بينما حصلت أنا على اثنين وسبعين. فصعدتُ إلى المنصة وبدأت محضر الجلسة بتلاوة الآيات من ٢٦ إلى ٢٩ من سورة

طه[٣]. وقد لفتَتْ مجلة مسيحية الانتباه إلى هذا وعلقت أن الرؤساء المسيحيين لم يغامروا في نطق اسم الله على المنصة خشية أن ينـــزعج المندوبون الشيوعيون، بينما بدأ رئيس مسلم محضر الجلسة بتلاوة من القرآن الكريم و لم يحتج على ذلك أحد.

بفضل الله المحض سارت الدورة بشكل سلس جدًا، وكان يسودها جو من التعاون الودي، وكانت الاجتماعات تعقد للمرة الأولى في مواعيدها المحددة.

رُتب جدول الأعمال بالتشاور مع المندوبين وأدخلت عليه التعديلات المناسبة، وكان الرئيس متواجدًا بيسر وسهولة، وقد أُنجزت انتخابات مجلس الأمن والهيئات الأخرى جميعها في أقل من ساعتين، وهي التي كانت تستغرق ساعات وساعات أحيانا. تم تداوُلُ جميع البنود الواردة في جدول الأعمال والتشاور حولها على النحو الواجب، وأنهت الجلسةُ أعمالها قبل أربع وعشرين ساعة من الموعد المحدد، وقلّما حدث مثل هذا من قبل. وبالنسبة لي فإنّ أكثر ما سرّني هو أنه لم تُثَرْ نقطة واحدة من الدستور طوال الجلسة، فالحمد لله!

حياتي الدبلوماسية، من آب/أغسطس ١٩٦١ حتى شباط/فبراير ١٩٦٤ في سن ٦٨ سنة ونصف إلى ٧١ سنة، كانت مناقضة تمامًا

[3] وهي قوله تعالى ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

لسكون الحياة وهدوئها التي اعتزمتُ أن أعيشها في كامبريدج؛ حيث لا صخب، بل هدوء سائد في جميع أنحائها. في عام ١٩٦٢ فُوِّضتُ في نفس الوقت أن أكون سفير باكستان في الأرجنتين وأن أقوم بزيارتين إلى بيونس آيرس، فأوصيْت أنه ينبغي أن يتم تأسيس السفارة في بيونس آيرس، وتمت الموافقة على ذلك وعُيّن السيد خُرَّمْ خان باني (مِن شرق باكستان) سفيرًا في الأرجنتين خلفًا لي.

في ربيع عام ١٩٦٢ مثلت باكستان في احتفالات الاستقلال في ترينيداد وتوباغو، وبقيتُ مدة أسبوع في بورت أوف سبين، وكانت تجربة ممتعة وسارة جدًا، وقد أُعجبتُ بسلاسة وجلال الطريقة التي تم بها كل شيء.

حصلَت الجزائر على استقلالها، ودخلت عضوية الأمم المتحدة عام ١٩٦٢ أثناء رئاستي للجمعية العامة، وقد سرّني هذا الحدث جدًا. وكان الوفد الجزائري يرأسه الرئيس أحمد بن بيلا وكان فيه وزير الخارجية محمد خميستي. وقد ترأس الوفد الباكستاني في الجلسة السيدُ محمد علي بوجره، وزيرُ خارجية باكستان، وقد حثّه الرئيس بن بيلا بقوة على أن أزور الجزائر بعد انتهاء الجلسة مباشرة.

وخلال الجلسة خاطب الرئيسُ الباكستاني محمد أيوب خان ورئيسُ الولايات المتحدة جون فيتزجيرالد كينيدي الجمعيةَ العامة.

وقد استدعيتُ إلى إسلام أباد فور انتهاء الجلسة، ووُجِّهتُ لأن أرتّب برنامجا لزيارة عدد من بلدان شرق وشمال إفريقيا. فبدأتُ بزيارة عدن،

ثم زرتُ الصومال، كينيا، تنـــزانيا، أوغندا، السودان، مصر، ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٦٣، واستُقبلتُ بحفاوة وكرم في كل مكان. وقد ألقيت خطابًا في البرلمان الصومالي وقُلِّدت أعلى وسام عسكري صومالي من قبل رئيس الصومال. وكان من بين الشخصيات البارزة التي كان لي شرف لقائها السيد جومو كينياتا في كينيا؛ والسيد مالكولم ماكدونالد، حاكم كينيا، وهو صديقي منذ فترة طويلة؛ والسيد جوليوس نيريري، رئيس تنـــزانيا، حيث حللتُ ضيفًا في قصر الدولة، دار السلام؛ والشيخ عمري عبيدي، وهو شاب بارز وواعد؛ والدكتور ميلتون أوبوتي، رئيس وزراء أوغندا؛ والسير فريدريك موتيسا، ملك بوجاندا، والسيد الصادق المهدي، حفيد المهدي السوداني؛ وصديقي الموقَّر العقيد جمال عبد الناصر، رئيس مصر؛ وصاحب الجلالة الملك إدريس، ملك ليبيا؛ والرئيس الحبيب بورقيبة، رئيس تونس؛ والرئيس أحمد بن بيلا، ووزير الخارجية محمد الخميتسي، والسيد فرحات عباس، رئيس برلمان الجزائر، وصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب، الذي تكرم وقلدني أعلى وسام عسكري في المغرب، وأحمد بالافريج، رئيس وزراء المغرب. ثم قُلِّدت أعلى وسام عسكري في سورية من قبل الرئيس السوري شكري القوتلي عام ١٩٤٧، وأعلى وسام هاشمي من قبل جلالة الملك الحسين ملك الأردن عام ١٩٥٤.

الشيخ عمري عبيدي كان أحمديًا متحمسًا، وقد درس الإسلام في ربوة وكرس نفسه لخدمة دينه، وكان قد انتُخب أول عمدة تنجانيقي لدار السلام، وأصبح عضوًا في البرلمان، وكان مفوض المنطقة الغربية في وقت الزيارة التي قمت بها، وبعد وقت قصير عُيّن وزيرًا للعدل، وقاد وفد تنـــزانيا إلى الدورة الثامنة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة، وفي وقت لاحق توفي بتسمم غذائي، وكان جوليوس نيريري، جومو كينياتا وميلتون أوبوتى من بين من حمل نعشه.

في كمبالا قمتُ بافتتاح مسجد أحمدي جميل.

في حزيران /يونيو عام ١٩٦٣ قمت بزيارة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بناء على دعوة من وزير الخارجية، السيد جروميكو، وهناك زرت لينينجراد، موسكو، طشقند وسمرقند. وفي طريق العودة زرت وارسو، براغ وزيورخ حيث قمت بمراسم افتتاح مسجد أحمدي. وفي طشقند وسمرقند تأثرت كثيرًا بالوحدة الثقافية بين باكستان وأوزبكستان، وظننت أن نفس الشيء ينطبق على الجزء الأكبر من جنوب السوفييت.

شعر الآخرون نحوي برضا تام، بفضل الله تعالى، أثناء الدورة السابعة عشرة للجمعية العامة، بحيث بدأتُ في منتصف عام ١٩٦٣ النظر فيما إذا كان ثمة فرصة معقولة لانتخابي لمحكمة العدل الدولية الذي يجري الانتخاب لها كل ثلاث سنوات، وكان من المقرر عقده في خريف عام ١٩٦٣، وقد صادف أن كان ثلاثة من القضاة الخمسة من المحكمة

الذين كان من المقرر استكمال ولايتهم في المحكمة في شباط/فبراير ١٩٤٦ هم من أمريكا اللاتينية، وعندما عُقد أول انتخاب للمحكمة عام ١٩٤٦ كان هناك خمسون عضوا من الأمم المتحدة، من بينهم عشرون من أمريكا اللاتينية، ومن بين القضاة المنتخبين الخمسة عشر كان هناك خمسة من رعايا الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، ومن العشرة المتبقية، كان هنالك أربعة من أمريكا اللاتينية، الذين كانوا متفاهمين تمامًا حول تنسيبهم في عضوية الأمم المتحدة. وبحلول عام ١٩٦٣ ارتفعت عضوية الأمم المتحدة إلى أكثر من مائة بينما ظلّ عدد الأعضاء من أمريكا اللاتينية عشرين عضوا. كان هناك شعور قوي بأنه ينبغي شغل المقاعد الشاغرة الثلاثة اللاتينية بواحد من آسيا، وواحد من إفريقيا وواحد من أمريكا اللاتينية، وكان السيد فؤاد عمون، وزيرُ خارجية لبنان، أحدَ المرشحين الآسيويين؛ فشعرتُ أن الأمر يستحق المحاولة للفوز بأحد المقاعد الشاغرة اللاتينية وتم اقتراح اسمي مرشحا.

أخبرني السيد آغا شاهي أن دبلوماسيا لبنانيا كبيرا مرّ بكراتشي والتقى به واقترح أنه ينبغي سحب اسمي حتى لا أتعرض للإحراج، لأنهم حصلوا على وعود لدعم غالبية أعضاء مجلس الأمن فضلاً عن أغلبية أعضاء الجمعية العامة، وأنه من غير المرجح انتخاب اثنين من الآسيويين، فعلق السيد آغا شاهي أنه لا يمكن استبعاد إمكانية انتخاب اثنين من الآسيويين.

وحتى يتم انتخاب المرشح فقد كان المطلوب أغلبية كل من أعضاء

مجلس الأمن وأعضاء الجمعية العامة، في حين أن عضوية مجلس الأمن كانت تقتصر على أحد عشر، فإن ستة تشكل الأغلبية. وقد حصل السيد عمون بكل تأكيد على أغلبية كلتا الهيئتين في التصويت الأول، وكان الفرق بيني وبينه في مجلس الأمن أنه حصل على سبعة أصوات وحصلت أنا على ستة، وهكذا فإنه يجب أن ينتخب كلانا، ولكن ظهرت صعوبة في الإجراءات.

في مجلس الأمن لم يحصل خمسة مرشحين على الأغلبية بل ستة مرشحين، مما اقتضى وجوب إعادة الاقتراع في مجلس الأمن. في الاقتراع الثاني حصل أيضًا ستة مرشحين على الأغلبية، ولكن ارتفعت أصواتي إلى سبعة وانخفضت أصوات السيد عمون إلى ستة، وفي الاقتراع الثالث، حصل خمسة مرشحين على الأغلبية، ولكن أربعة منهم فقط حصلوا على غالبية الجمعية العامة، وأُعلنَ انتخاب هؤلاء الأربعة، وكنت واحدًا منهم. حصل السيد عمون على الأغلبية في الجمعية العامة، ولكنه حصل على خمسة أصوات فقط في مجلس الأمن، وحصل المرشح الإفريقي على الغالبية في مجلس الأمن، لكنه فشل في الحصول على الغالبية في الجمعية العامة، وهكذا مُلئتْ أربعة شواغر وكان لا بد من الاقتراع لأجل المقعد الشاغر الخامس. في الاقتراع لشغل المنصب الخامس الشاغر ضَمِنَ المرشح الأفريقي الغالبية في كلتا الهيئتين وأُعلنَ انتخابه. كان نائبي الدكتور و. إ. حمداني متأثرًا جدًا وأراد أن يعرف كيف فشل السيد عمون الذي كان مدعومًا في كلتا الهيئتين، ولم يتم انتخابه وتم انتخابي

أنا. فقلت له إني سأشرح له المسألة عندما نعود إلى مكتبنا، ولكن ذلك حصل بفضل الله تعالى قبل كل شيء، فالحمد لله.

لقد بدأت العمل بالمحكمة بدوام كامل لمدة تسع سنوات في ٦ شباط/ فبراير عام ١٩٦٤ أي في يوم ميلادي الحادي والسبعين. كنت قد فقدتْ أقدميتي الأصلية بين زملائي في المحكمة، فصرتُ الآن مبتدئًا بين أحد عشر منهم، والأعلى فقط بين ثلاثة تم انتخابهم معي وكانوا أصغر سنًا مني.

دُعيت من قِبل حاكم البنك المركزي في نيوزيلندا لأخطب في مؤتمر المصرفيين حول موضوع غير فني في تشرين الثاني/ نوفمبر، عام ١٩٦٥. كان لي بعض المشاغل في الولايات المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر، فسافرت من سان فرانسيسكو إلى أوكلاند في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر، وقطعت الرحلة لمدة أسبوع في جزر فيجي، حيث يوجد جماعة أحمدية فعالة ونشطة ومنظمة؛ هذه الجزر هي في الحقيقة واحدة من أطراف الأرض، حيث يمر بها خط التوقيت الدولي؛ ومن أوائل الإلهامات التي تلقاها مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام من الله تعالى: "سأبلغ دعوتك إلى أقاصي الأرضين". وتدل كل المؤشرات، بفضل الله تعالى، أن للجماعة الإسلامية الأحمدية مستقبلا مشرقا في جزر فيجي. وقد سررت واستمتعت كثيرًا في كل لحظة من وجودي في نيوزيلندا. ثم طرت من نيوزيلندا إلى سيدني حيث أمضيت ثلاثة أيام ممتعة جدًا في كينبرا.

أديت العمرة وزرت المدينة المنورة عام ١٩٥٨. وفي ربيع عام ١٩٧٦ كان لي الحظ العظيم في أداء الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة المدينة المنورة مرة أخرى، ونـــزلت ضيفًا عند صاحب الجلالة الملك فيصل. وقد رافقني للحج أنور أحمد وزوجته أمينة بيغم، وقاما بالعناية بي طوال الرحلة. جزاهم الله أحسن الجزاء على اهتمامهم بي على مر السنين.

في وقت لاحق من نفس العام، دُعيت لزيارة جنوب إفريقيا، وفي كيبتاون، وهي طرف آخر من الأرض، التقيتُ بأعضاء الجماعة الأحمدية الصغيرة، وزرتُ العواصم التنفيذية والتشريعية والقضائية والمدن الكبيرة للاتحاد، ومررت بالدكتور فورستر، ورئيس الوزراء ورئيس الاتحاد. وفي وقت لاحق رأيت الكثير من الناس وتحدثت معهم، وجلست مع المحكمة العليا واستمعت إلى الحجج في الاستئناف.

تواجهُ جنوب إفريقيا مشكلة إنسانية معقدة وشديدة، ولا يسهل حلها، وقد أحرز بشأنها بعض التقدم، لكنه بطيء، ويشق طريقه بارتباك وضعف شديد. منذ أن اعتنت الحكومة المركزية بالتعليم والسكن تم تحسينهما، ولكن يجب أن يكون معلومًا أنه كلما تحسّنَ سكنُ غير البيض وكلما قُدّمتْ لهم تسهيلات تعليمية أكبر ازدادوا وعيًا للتمييز الذي يتعرضون له، وكان رد فعلهم أعنفَ على ذلك. وبعبارة أخرى، يتهيء المواطن الأسود أكثرَ للمطالبة بالحقوق المدنية، وتزداد الضغينة لديه بسبب الحرمان الذي فُرض عليه، ولذلك، على البيض أن يعدّوا أنفسهم للتقدم بسرعة نحو تحقيق هدف عدم التمييز. الداء هو داء

الروح، والعلاج يجب أن يسعى لشفاء الروح. المفارقة هي أن البوير (أي المستعمر الهولندي)، الذي هو بطريقته الخاصة متدين جدا، ليس مستعدًا للاعتراف بأن غير الأبيض هو في الحقيقة مخلوق من مخلوقات الله تمامًا مثل البوير، وبأن الله تعالى قد جعل الرغبات الجسدية والمادية والمعنوية والسعادة الروحية لغير البيض أيضا كما هي عند البوير (الأبيض).

القضاة الذين فازوا في عام ١٩٦٩ في الانتخابات التي تجري كل ثلاث سنوات، بدأوا العمل في شباط/فبراير ١٩٧٠ في المحكمة الدولية، فأثيرت قضية رئاسة المحكمة، وقد ذُكر اسمي واسم السير جيرالد فيتزموريس. وكان من المرجح أن يكون السباق قويًا، ثم جاء اسم قاض ثالث، وأصبح كل شيء في السباق غير مؤكد، باستثناء أن عملية الانتخابات ستكون طويلة، وهذا ما ثبت على أرض الواقع؛ وقد تتابع الاقتراع بعد الاقتراع بشكل غير حاسم، وحصل تحوُّل في وقت متأخر من اليوم الثاني من الاقتراع، وانتخبْتُ وأصبحتُ أولَ رئيس آسيوي للمحكمة، وهكذا تحققت رؤيا والدتي التي رأتها في المنام منذ أكثر من ثلث قرن، ولم يكن ذلك نتيجة أي تخطيط بشري أو وفقًا لتوقعات أي مخلوق، لكنه، كما هو واضح، نتيجة خطة إلهية.

تأمّلْ حياتي المهنية والأنشطة من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٧٠ الواردة في الصفحات السابقة: في ربيع عام ١٩٣٤ كان السير شادي لال مستعدًا للتوصية بتعييني في هيئة المحكمة العليا، وكنت آنذاك في الحادية

والأربعين من العمر، وكان من المعقول أن أصبح رئيس قضاة المحكمة العليا قبل تقاعدي في سن الثانية والستين، وهذا ينطبق أكثر على عرض السير دوغلاس يونغ الذي قال لي بعد ذلك ببضعة أسابيع إنه سيوصي بتعييني في الشاغر الأول الدائم في هيئة المحكمة، حيث قد أترأس خمسة قضاة آخرين.

وعندما اخترتُ الذهاب إلى المحكمة الاتحادية عام ١٩٤١ اعتقد أصدقائي أن اختياري لم يكن حكيمًا. لو تُرك لي الاختيار لواصلتُ العمل في الحكومة، ولكن التوجيه الإلهي كان يشير بوضوح إلى المحكمة الاتحادية. لو اخترتُ البقاء بشكل دائم في الهند بعد التقسيم عام ١٩٤٧، لأصبحت بالتأكيد أول رئيس لقضاة المحكمة العليا في الهند؛ ولكني كنت مصرًا على أن لا أستقر في الهند.

في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٤٧، عُرضتْ عليَّ رئاسة العدالة في المحكمة العليا في باكستان، لكني فضّلتُ حقيبة الشؤون الخارجية. وفي عام ١٩٥٢، حثّني بشدة ميان عبد الرشيد، رئيسُ قضاة محكمة باكستان العليا، على أن أوافق على خلافته في المحكمة، لكني رفضت عرضه اللطيف. لو أعيد انتخابي عضوا في محكمة العدل الدولية عام ١٩٦١، لنجحت بالتأكيد بخلافة الرئيس كليستاد في رئاسة المحكمة، ولكن لم يُعَد انتخابي، وبدا ذلك نهاية حياتي المهنية العامة. وبنظرة دنيوية لم يعُدْ هناك إمكانية لتحقيق رؤيا والدتي، ولكني كنت مقتنعًا بأن رؤيتها كانت صحيحة، وهي تتضمن وعدا إلهيا لا بد أن يتحقق،

كيف؟ ومتى؟ لا أعرف؛ وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(يونس:٥٦). حين يغلق الله تعالى بابًا لا بدّ أن يفتح آخر، وكان فتح الباب أني أُرْسِلتُ إلى الأمم المتحدة سفيرا لباكستان وأنا أبلغ من العمر ٦٨ عامًا. ولكن تأمَّل مرة أخرى العملَ العجيب الذي فعلته المشيئة الإلهية؛ كان السيد منجي سليم من تونس سيُنصَّب رئيس الدورة السادسة عشرة (١٩٦١) للجمعية العامة، ووُعد السيد علي ساسترو أميدجويو من أندونيسيا برئاسة الدورة السابعة عشرة (١٩٦٢)، في هذه الحالة سيكون تناوُب الرئاسة من أمريكا اللاتينية (١٩٦٣)، ومن إفريقيا عام (١٩٦٤) ومن الغرب (١٩٦٥) ومن آسيا (١٩٦٦)، بحلول ذلك الوقت سأكون قد تجاوزت الثالثة والسبعين، ويكاد يكون من المؤكد أني سأكون تركتُ الأمم المتحدة، ولكن السيد علي ساستروأميدجويو لم يكن موجودًا عام ١٩٦٢، ورغم ذلك تمت الموافقة على اقتراحي بأنه ينبغي أن تكون الرئاسة عام ١٩٦٢ من أمريكا اللاتينية وعام ١٩٦٣ من آسيا. كان السفير أماديو (من الأرجنتين) اختيار اللاتينيين، ولكنه استقال من منصبه في الأمم المتحدة بسبب الثورة في بلاده، وتقدمتُ لرئاسة الجمعية العامة عام ١٩٦٢.

وبفضل الله تعالى سارت أمور الرئاسة بشكلٍ جيد مما منحني قدرًا كبيرًا من الإرادة القوية، وفي أواخر عام ١٩٦٣ قررتُ ترشيح نفسي لمقعد في المحكمة الدولية الذي يجرى الانتخاب عليه كل ثلاث سنوات، وكان السيد فؤاد عمون، وزير خارجية لبنان، أحد المرشحين أيضًا،

وكان قد ضمن مسبقًا تأييد أغلبية أعضاء مجلس الأمن والجمعية العامة، مما جعل انتخابه مؤكدًا بينما انتخابي بعيد الاحتمال، ومع ذلك انتُخبتُ، وفتَح هذا الطريق لانتخابي رئيسًا للمحكمة عام ١٩٧٠ وعمري سبعة وسبعون عامًا، وهكذا تحققت رؤيا والدتي التي حلمت بها منذ ست وثلاثين سنة، فالحمد لله.

لم يقتصر الأمر على أنني أصبحت رئيسًا لأعلى محكمة في العالم، ولكني الشخص الوحيد حتى الآن الذي جمع بين رئاسة الجمعية العامة للأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية في آنٍ واحد، وهذا امتياز لا زلت أحتفظ به حتى الآن.

الطريقة الاستثنائية التي تحققت بها رؤيا والدتي هي دليل إيجابي على وجود الله، وعلى إمكانية إقامة علاقة معه، وعلى حقيقة أنه يتكلم اليوم كما كان يتكلم في الأيام الخالية، وهي دليل أيضًا على أن الرؤى الأخرى التي وجّهت والدتي لقبول الأحمدية كانت صحيحة أيضًا.

كيف مكَّنَتني العناية الإلهية من أداء مسؤولياتي رئيسًا للمحكمة؟ أمرٌ ليس ذا صلة مباشرة بتحقق رؤيا والدتي، مع أنه بالضرورة موجود ضمنًا في ذلك، هذا التضمن سيكون موضع تقدير الأشخاص القادرين على تمييز الأمور الإلهية.

طريقة سرد هذه الرؤيا الجديرة بالذكر اضطرتني إلى استباق أحداث وقعت لفترة طويلة بعد وفاتها، وسأواصل الآن قصة حياتها اعتبارًا من عام ١٩٣٤ فصاعدًا.

التفاني والتعاطف

مع مرور الوقت تزايدت غيرةُ أُمي على الإيمان وحبها وتفانيها لأفراد أسرة المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام، وكثيرًا ما كانت تقول إنها تدعو الله تعالى لكل فرد من أفراد أسرة المسيح الموعود ولا سيما لخليفته الثاني، فحبُّها له لا يعرف حدودا، فبمجرد أن تعرف بأي توجيه من حضرته تنفذه فورا.

وقد تعامل حضرتُه معها أيضًا ببالغ المودة. وإضافة إلى حبها الكبير له فقد كانت تتحدث إليه بحميمية كما تتحدث الأم لولدها، وكان حضرته يواصل الاستماع لها لطمأنتها.

في إحدى رؤاها رأت المسيحَ الموعود عليه السلام يتحدث إلى والدي، ثم أشار عليه السلام إليها مِن بُعد وقال لوالدي: نادِها. فقال والدي لشخص: والدةُ ظفر الله خان تقف هناك، فاذهبْ إليها من فضلك وقلْ لها إن حضرة المسيح الموعود يدعوها. وحين علمتْ بذلك جاءت ووقفتْ خلفه بخضوع قائلة: سيدي، أنا هنا. فلما سمع صوتها أوصاها بما يلي: أَخْبِري محمود أن ينتبه لشؤون المسجد.

وبعد أن رأت تلك الرؤيا وجَّهتْني لأن أروي الرؤيا لحضرة خليفة المسيح الموعود. فبمجرد أن سمع الرؤيا علق عليها قائلا: هذه إشارة إلى المحن التي قد تواجهها الجماعة.

بعد وفاة والدي ببعض الوقت سألتُ حضرة خليفة المسيح عن إمكانية حجز قطعة الأرض الملاصقة لقبر والدي لقبرها، فقال إنه لا تتم الموافقة على الحجز المسبق عادة، ولكن يمكن ذلك في ظروف استثنائية، ثم أعطى تعليماته على الفور بحجز الموقع الذي على يمين قبر والدي ليكون مكان قبر أمي.

بعد ذلك بفترة وجيزة توفيتْ زوجة عمّ حضرة خليفة المسيح، وهي أرملة ميرزا غلام قادر الشقيق الأكبر للمسيح الموعود عليه السلام، ودُفنتْ بخطأ غير مقصود في المكان المحجوز لأمي. وبعد ذلك ببعض الوقت توفي عضو موقر آخر من أبناء الجماعة، وهو عبد الستار خان الأفغاني حواري حضرة صاحبزادة عبد اللطيف خان شهيد كابول، ودُفن تمامًا على يسار والدي. وعندما ذكرتْ أمي ذلك لحضرة خليفة المسيح، قال لها قد حصل ذلك بخطأ غير مقصود مِن قبل مسؤولي المقبرة، ولكنه أعطاهم توجيهات صارمة بأن الموقع الآخر القريب من قبر حضرة تشودري يجب أن يُحفَظ لها وأن ذلك يجب أن يسجَّل في دفتر المقبرة. وأضاف: هذا الموقع يقع أسفل قبره، فأجابت: سيدي، أنا موافقة أن أستلقي حتى تحت قدميه.

في أيار/ مايو ١٩٣٥، غادرنا إلى "شِمله"، العاصمة الصيفية للحكومة الهندية، لأني توليت هناك منصب عضو في المجلس التنفيذي للحاكم العام، وفي نفس الوقت غادر سيد إنعام الله -وهو صديق عزيز علي جدًا منذ خمسة وعشرين عامًا كما أن أمي كانت شديدة التعلق به أيضًا-

إلى حيدر أباد (جنوب الهند) لأداء بعض الأعمال التي كُلِّفَ بها، وبعد ذلك بأسبوعين تلقيتُ برقية مفادها أنه مريضٌ جدًا. فأرسلنا له خادمًا على الفور للعناية به في حيدر أباد، وواصلْنا الدعاء والابتهال إلى الله تعالى لشفائه. وقد أخبرتني أمي أنها قد رأت منذ عدة أيام أنها تجلس على أريكة مع سيد إنعام الله ومع تشودري بشير أحمد في فناء مفتوح، فبرز فجأة من النافذة ابن عمِّنا تشودري جلال الدين، وتذكرتُ بأنه مات، فخافت من حضوره المفاجئ وأشارت إلى تشودري بشير أحمد أن عليهما الانسحاب، فتحركا من الفناء ودخلا إلى غرفة عبر نافذة يمكنها من خلالها مشاهدة الفناء، فرأت أن تشودري جلال الدين يجلس على أريكة مقابل سيد إنعام الله وقد غطيا نفسيهما بنفس الغطاء وتمددا على الأريكة. وعندما سمعتُ روايتها للرؤيا قلت لها: إن تفسيرها واضح، لذلك سأُرسلُ برقية إلى سيد إنعام الله ليعود حالاً من حيدر أباد، وكل ما نستطيع فعله هو أن نواصل التضرعات لله تعالى.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى دلهي ليوم واحد، وبينما كنت فيها تلقيت برقية أن إنعام الله قد توفي.

وعندما عدت إلى "شِمله" سألتني والدتي: هل هناك أي أخبار عن إنعام الله؟

قلت: آخر الأخبار قد وصلتْ.

تأثرتْ كثيرًا ودعت الله تعالى لمغفرته وسألتني: متى توفي؟

قلت لها إني تلقيت البرقية أمس في دلهي، وأرى أنه توفي في الليلة السابقة.

نعم، يجب أن يكون توفي نحو الساعة الثالثة فجرًا، ذلك أني عندما فرغت من صلاة التهجد لم يكن وقت صلاة الفجر قد حان بعد، فذهبتُ إلى سريري وتابعت التضرعات لله تعالى من أجل شفائه، فسمعتُ فجأة: حياته قد توقفت. فذهبتُ إلى غرفة زوجتك وأخبرتُها أن إنعام الله قد توفي.

عندما عاد الخادم الذي أرسلناه إلى حيدرأباد علمنا منه أن إنعام الله قد توفي نحو الساعة الثالثة فجرًا.

في عام ١٩٣٢، عندما بدأتُ رسميًا وظيفتي عضوا في المجلس التنفيذي للحاكم العام أثناء غياب السير فضل حسين في إجازة، كان اللورد ولينغدن هو الحاكم العام، وقد سنحت للسيدة ولينغدن فرصة مقابلة والدتي في حفلة نساء في فايسرجال لودج، فأحبتها كثيرًا، وكانت تذكرها في حديثها بكلمة أمي دائمًا. وفي عام ١٩٣٥ أعيد إحياء صداقتهما، حيث حضر اللورد والسيدة ولينغدن إلى مكان إقامتي الرسمية في "شِمله"، وصرحتْ لي السيدة ولينغدن أن نائب الملك يرغب في أن يسلّم على والدتي إن كانت توافق على الالتقاء به. كانت حينها في الثانية والسبعين من العمر، ويسمح لها ببعض التراخي فيما يتعلق بمراعاة الحجاب، ولذلك، فلا يوجد أي اعتراض على مقابلته.

بعد أن ألقى نائب الملك عليها التحية، سألها برأيها أيهما أسهل، إدارةُ

معيشة الأسرة أم إدارة إمبراطورية؟ فقالت من دون أدنى تردد مؤكدةً بلطف: الأسهل هو ما يجعله الله أسهل!

كان السير هربرت إيمرسون، حاكمُ البنجاب، إداريًا بارعًا، ولكنه كان لبعض الوقت غير متعاطف مع الجماعة الأحمدية، وحين أدركتْ منظمة الأحرار ذلك - وهي منظمة سياسية غير مسؤولة تتخفى تحت عباءة الدين- بدأتْ تنغمس في المظاهرات العدائية ضد الجماعة وأبنائها، وكانت تظن أنها يمكن أن تفعل ذلك مع الإفلات من العقاب. في صيف ١٩٣٥ قام وغد أحراري بالهجوم بالعصا على صاحبزادة ميرزا شريف أحمد، الشقيقِ الأصغر لإمام الجماعة الإسلامية الأحمدية، فأحزنَ خبرُ هذا الحادث المؤلم والدتي كثيرًا، وكانت شديدة القلق إزاء تأثير هذا الحادث على حضرة أم المؤمنين، فوهنت بسبب ذلك. وفي أحد الأيام قالت لي: أشعر بقلق متواصل من هذه القضية الخطيرة، ولا يمكنني أن أفكر في أي شيء آخر، وخطرتْ لي الآن فكرة؛ لقد دعوتُ الله تعالى بصدق بهذا الشأن وشعرتُ أنه تعالى سوف يمكّنني بالتأكيد من تنفيذها. فسألتها: بماذا تفكرين؟

- أنت تعرف بأن السيدة ولينغدن تُكِنُّ لي مشاعر قوية، وأشعر أنها تحترمني، فلو رتّبتَ لي لقاءً بالسيدة ولينغدن بحضور نائب الملِك فسأتمكن من إخبارهم كيف تعامل حكومةُ المقاطعة الجماعةَ. لقد تدهورَ الوضع الآن كثيرًا لدرجة أن شابا غير مسؤول قد اعتدى على ابن المسيح الموعود. أنا سيدة مسنّة ويسمح لي بدرجة معينة من الحرية

في المجال الاجتماعي، وأشعر برغبة قوية للتظلم إلى نائب الملك.

– سيرتَّب الاجتماع بالتأكيد حسب رغبتك، وأود بالطبع مرافقتك والقيام بالترجمة، وقد سبق لي ذكر هذه الحادثة إلى نائب الملك، وسأنقل له الآن كل ما ستقولينه، ولكن عليك أن تقولي ذلك بنفسك، وأنا لن أضيف شيئا من نفسي.

– كل ما عليك فعله هو ترتيب الاجتماع فقط، وأنا واثقة من أن الله تعالى سوف يوجّهني.

في اللقاء كانت السيدة ولينغدن تجلس على الأريكة، ودعتْ أمي للجلوس على يسارها ووضعتْ ذراعها اليسرى حول خصرها وسحبتْها قريبًا منها، وجلس نائب الملك على كرسي على يمين السيدة ولينغدن، وجلستُ على كرسي على يسار والدتي. وبعد تبادل عبارات المجاملة خاطب نائبُ الملك والدتي: فهمتُ من ظفر الله أنك ترغبين بالتحدث معي حول جماعتك.

– نعم، في الواقع. لقد غامرتُ للوصول إليكم بعد تفكير كثير. أنا عضو بالجماعة الأحمدية وقد وجهنا المسيح الموعود، مؤسس الجماعة، أننا ينبغي أن نكون موالين للحكومة البريطانية وينبغي أن ندعو لها لأننا نتمتع في ظلها بكامل الحرية الدينية ونقوم بأنشطتنا الدينية دون أي خوف. مع أني لا أستطيع التحدث عن الجماعة، لكني أستطيع أن أؤكد من جانبي وبثقة كاملة (وعند هذه النقطة وضعت يدها اليمنى على قلبها) أني قد عملتُ بتعليمات المسيح الموعود بشكلٍ كامل، وأدعو

باستمرار لخير الحكومة البريطانية، ولكن، على مدى العامين الماضيين كان موقف حكومة البنجاب نحو جماعتنا موقفًا غير متعاطف وغير عادل، وقد تعرضَ إمام وأبناء الجماعة لمشاكل كثيرة، ورغم ذلك فأنا أتابع الدعاء للحكومة امتثالاً لتعليمات المسيح الموعود، ولكن دعائي لا يخرج بصورة تلقائية من قلبي، لأن قلبي مهموم؛ فمنذ بضعة أيام فقط اعتدى شخص تافه على الشقيق الأصغر لإمام الجماعة وتسببَ له بجروح. إن أبناء المسيح الموعود أحبُّ إلينا حتى من أرواحنا، ومنذ أن سمعتُ بهذا الحادث أنا لا أستطيع الأكل ولا الشرب ولا النوم.

كانت كلماتها الأخيرة مشحونة بالكثير من العاطفة لدرجة أن السيدة ولينغدن، التي كانت تربت على يد أمي حينما كانت تتحدث، لم تعد تستطيع كبح جماح نفسها وصاحت تقريبًا على نائب الملك: ما هذا، وماذا ستفعل حيال ذلك؟

حاول تهدئتها بلطف بقوله: عزيزتي، لقد ناقشتُ المسألة مع ظفر الله. ثم وجّه كلامه لأمي بنفس اللهجة الرقيقة شارحًا لها: هذه المسائل هي من اختصاص الحاكم بالمقام الأول ولا أستطيع أن أعطيه أوامر بشأنها، وإذا فعلتُ فسوف يستاء من ذلك. فمثلاً لو أعطاني الحاكم العام أوامر حول مثل هذه الأمور عندما كنت حاكمًا في مومباي ومدراس لاستأت من ذلك أيضًا.

فاعترضَتْ قائلة: أنا لم أقل أن تأمر الحاكم أو توبخه، ولكن بالتأكيد عليك أن تشرف عليه، ويمكنك تقديم المشورة إليه بلطف وبأدب أنه ينبغي أن يولي الاهتمام لمظالمنا وأنه ينبغي أن يسعى لإزالتها.

- سأفعل ذلك بالتأكيد.

ولكن سخط السيدة ولينغدن لم يهدأ كثيرًا، وكانت تحاول مواساة والدتي بكلماتٍ وإيماءاتٍ لطيفة وودودة، ثم اتجهت نحوي وقالت: قل لوالدتك هذه الكلمات: سأوبّخ حاكم البنجاب، سوف أوبخ حاكم البنجاب.

في أحد أيام كانون الثاني/ يناير ١٩٣٦ لاحظتُ أن أمي حزينة، فسألتها عما يُقلقها؟ فقالت إنها في الليلة السابقة قد سمعت في الرؤيا شخصا يقول: أسد الله خان قد اغتيل، ونصحها أن على شقيقه الأكبر أن يعتني بأولاده من بعده. حاولتُ تهدئتها مؤكدًا لها أن الرؤى تكون حسب تفسيرها، ويمكن تفادي الكارثة بالصدقات وبالدعاء. فقالت إنها قد تصدقت وسوف تواصل التضرعات لله تعالى طالبةً الرحمة.

بعد يومين أو ثلاثة جاء أسد الله خان إلى دلهي لزيارتنا ووصل في وقت الفطور، وعند منتصف الفطور جاء الخادم الذي كان يفرغ محتويات حقائبه، وعلامات الحيرة تعلو وجهه وبيده خنجر حاد مخيف وقال لأسد الله خان أنه وجد هذا الخنجر في غطاء فراشه الملفوف. أُحرج أسد الله خان كما لو كان يفضّل لو أن هذا السلاح ظلّ غير مكتشف و لم ترَه أمي و لم يسبب لها الإزعاج، ولكن الفضول الذي أثير

حوله أرغمه على تفسير الأمر؛ حيث قال: عندما جلست ليلة أمس في مكاني في مقصورة القطار ورتبتُ سريري بحيث يكون رأسي قريبا من باب المقصورة وقدماي في آخر مضجع القطار. استلقيتُ بتلك الوضعية وتحركَ القطار، وبعد ساعة استيقظت بشعور أن عليّ أن أعكس اتجاه وضعية نومي، فنقلتُ وسادتي إلى آخر المضجع. ولما كانت الليلة باردة، لففت نفسي جيدًا بأغطية السرير، وسرعان ما خلدت للنوم وقدماي قرب الباب. وعند حوالي منتصف الليل أخذتُ أشعر بالبرد وأدركتُ أن أغطية السرير قد انــــزلقت، فجذبتها ولكني لم أتمكن من سحبها حيث يبدو أنها عالقة ببعض العراقيل بين ركبتي، فأنرتُ الضوء ولاحظت مقبض سلاح مغروز بأغطية السرير، وعند التحقيق بالأمر وجدت أن خنجرًا حادًا قد توغّلَ من خلال أغطية الفراش وثبت بقوة في جلد الفراش الجلدي للمضجع.

طبيعة السلاح تبين أن خطة المعتدي كانت مدروسة بعناية، وقد راقب ضحيته المقصودة حين دخل مقصورته في محطة السكك الحديدية في لاهور، ولاحظ بلا شك وهو يضحك بينه وبين نفسه مدى سهولة مهمته بسبب طريقة نوم أسد الله خان بحيث أن كل ما كان عليه فعله هو فتح الباب بهدوء ليقف وقفة متوسطة ويغرز الخنجر بقوة في صدر الضحية.

هذا ما قام به، ولا بد أنه تصوّر أن مخططه قد أنجز؛ حيث إنه لم يلاحظ أدنى حركة و لم يسمع أي تأوّه، لكنه لم يعلم بأن الرحمة الإلهية

قد جعلت ضحيته يغيّر وضع نومه قبل الهجوم بقليل، وبالتالي أحبطتْ خطته، فلم ينغرز الخنجر في صدر الضحية بل في المسافة الفارغة بين ساقيه بينما كان نائمًا بسلام. ليس هناك شك في أن صدقات والدته وتضرعاتها تسببت في الفوز برحمة الله.

وفي ربيع عام ١٩٣٦ خلف اللورد لينليثجو اللوردَ ولينغدن في منصب نائب الملك والحاكم العام في الهند، واستمر أذى الأحرار لأبناء الجماعة الإسلامية الأحمدية دون رادع، وظلّ موقف السير هربرت إيمرسون، حاكمِ البنجاب، غيرَ متعاطف مع الجماعة. وفي أواخر صيف عام ١٩٣٦، عقد الأحرار مؤتمرًا في "دَسْكَه"، موطن أجدادنا، وكان شقيقي الأصغر شكر الله خان يقيم في دسكه، وكان منـــزله قريبًا من مسجدنا، وفي يوم المؤتمر وصلتْ مجموعة من الأحرار مساءً خارج المسجد يضمرون الشر، وعندما خرجتْ جماعةُ المصلين
من المسجد قامت عصابة الأحرار بضربهم بالعصي، وأصيب أخي بجروح بالغة وبدأ ينـــزف على درج المسجد. وعندما أدرك أن المهاجمين يعتزمون ضربه حتى الموت، ركض إلى المنـــزل من خلال باب صغير أغلقه وراءه، فانتقلت العصابة إلى الباب الرئيس للمنـــزل الذي كان مصنوعًا من الخشب السميك ومثبتًا بالمسامير، وعندما وجدوه أنه بابٌ صلب حاولوا دخول المنـــزل من خلال الباب الجانبي الصغير. كان شابان من الخدم يتمركزان داخل الباب الصغير فحذرا العصابةَ أنه في اللحظة التي ينجح أيّ منهم بدفع رأسه داخل البوابة الصغيرة

فسيسحقان رأسه. كان من الواضح من سلوك وصراخ أفراد العصابة أنه بمجرد أن ينجحوا في دخول المنـــزل فإن حياة وشرف سكانه من الرجال والنساء والأطفال ستكون في وضع بالغ الخطر، وهذا ما نشأ عن حالة الحصار.

كتب أخي تقريرًا موجزًا عن الوضع ووكّل صبيًا سريعَ الخطى في تسليمه إلى مركز الشرطة. صعد الصبي إلى سطح المنـــزل وقفز عن طريق أسطح المنازل المتاخمة ووصل إلى الشارع الخلفي وشق طريقه متخفيًا إلى مركز الشرطة وسلّم التقرير إلى الضابط المناوب الذي علّق بسخرية بعد أن ألقى نظرة عابرة على التقرير: دَعْ أولئك الميرزائيين التعساء يعانون، إنهم يستحقون ذلك.

بعد منتصف الليل تبدّدَ المحاصرون بعد أن شعروا بالملل. كانت والدتي في ذلك الوقت معي في "شِمله"، وكان من الطبيعي أن تشعر بالاضطراب الكبير عندما تعلم بالأمر. وقد كنت قلقا من موقف الشرطة غير المتعاطف وغير المتعاون؛ حيث كان مدير شرطة المقاطعة متعصبًا ضد المسلمين ولا يتوقع منه أي شيءٍ جيد. فكتبت رسالة إلى السير دونالد بويد، العضوِ في حكومة البنجاب، وبينتُ له الحقائق باختصار، واقترحتُ نقل مدير شرطة المقاطعة إلى منطقة أخرى من أجل العدالة والنـــزاهة. فقدّم السير دونالد رسالتي، كما يقتضي الواجب، إلى السير هربرت إيمرسون، الذي امتعض كثيرًا منها وأخذها إلى نائب الملك شاكيًا له أن الرسالة تُظهِر عدم الثقة في شرطته وتهدف لتشويه

صورها، واقترح أن يقيم تحقيقًا عاما في أمر الادعاءات الواردة في الرسالة حتى يتضح الأمر برمته.

عندما ذهبتُ للمقابلة الأسبوعية مع نائب الملك سألني ما إذا كنت قد كتبت رسالة إلى السير دونالد بويد. فأخبرته أني فعلتُ، وشرحتُ له خلفيّة الموضوع. فأخبرني عما اقترحه الحاكم وقال: بصفتي الحاكم العام منعتُه من إجراء أي تحقيق عام.

- آسف لسماع ذلك، ونحن نرحب بإجراء تحقيق عام حول كل ما حصل من سوء فهم بين الجماعة والحكومة، لأن ذلك سيوضح الحقيقة. وإذا نجحنا في تهدئة مخاوف الحاكم بشأن الجماعة فقد يغير موقفه منا، ومن ناحية أخرى، إذا اقتنعنا أن مظالمنا ضد الحكومة قد أسيء فهمها فإن أذهاننا سترتاح. لن أدع ذلك يسبب لكم الإحراج، سوف أستقيل على الفور وسأكون سعيدًا بتمثيل الجماعة في التحقيق.

- أقدر موقفك وأدرك صعوبة وضعك. لديّ ثقة كاملة بك، ولقد أخبرت الحاكم بأني سأقبل بما تقوله ضد أي شيء آخر، لذلك فلا تستعجلْ في الاستقالة. عليك أن تستمر في منصبك إلى أن تجد الوضع هنا يتعارض مع ضميرك. أنا متعاطف معك، فإن أسرتي أيضًا قد تعرضت للاضطهاد لفترة طويلة في الماضي. وفيما يتعلق بالحادث المؤسف الذي تعرض له أخوك فسيتم البت القضائي في المسألة برمتها، دَعْنا ننتظر ذلك.

– أنا ممتن لتعاطفكم وتفهمكم. وبالنسبة إلينا، فإن موردنا الوحيد هو الدعاء ويجب أن نستعين به.

كنتيجة لما سُمّي التحقيق لفّقت الشرطةُ قضية كاذبة لا أساس لها ضد جميع الذكور البالغين من أبناء الجماعة الأحمدية في دسكه، حيث وُجّهت لأحد عشر منهم تهمًا بأعمال الشغب والتسبب بالأذى لِمَنْ حضَر مؤتمر الأحرار. فأصيبت والدتي بالصدمة الشديدة والحزن العميق، فقد كان جميع من اتهموا زورًا قد انضموا للجماعة على يديها، فكانت تشعر بمسؤولية خاصة تجاههم جميعًا، فكانت تضرعاتها إلى الله تعالى من أجلهم تتسم بحرارة خاصة.

كان المسؤول عن القضية قاضيا غير مسلم، وبعد دراسة ملف الشرطة اشتبه في الأمر بقوة ورأى أن هناك خطأ مميتا في القضية، مما أثار فضوله واهتمامه، وعندما قُدّمت الأدلة قام بالتمحيص في كل شيء بدقة، ومع تقدُّم القضية بدأ كل شيء بالسقوط في مكانه كاللغز الصيني. وفي النهاية وجد أن قضية الادعاء عبارة عن حزمة من الأكاذيب المحبوكة، فأعدَّ تقرير المعلومات الأول بعد أخذ إفادات شهود الادّعاء، وبدا كل شيء واضحًا تمامًا، فلم يكن أحد من المتهمين قد اقترب شبرا واحدًا داخل مكان عقد المؤتمر. وأثناء إعطاء أوامره بإطلاق سراح المتهمين نقَد القاضي الشرطةَ نقدا قاسيا. وقد ثار غضب السير هربرت إيمرسون من نتيجة القضية، وعيّن نائبَ المفتش العام للشرطة لإجراء تحقيق عن صحة

النتائج التي توصل إليها القاضي، وهكذا وُضع القاضي في موقع الدفاع عن نفسه.

كشف نائب المفتش العام في تقريره عن سوء سلوك الشرطة بصورة أوضح من سابقتها، وبيّن أن النتائج التي توصلَ إليها القاضي كانت أكثر من مبررة.

سُرّت أمي بنتيجة القضية، وامتلأ قلبها مرة أخرى بالامتنان لله تعالى على رحمته العظيمة. وعندما أُبلغَ نائب الملك بالنتيجة، عن طريق سكرتيره الخاص، عرف بأني كنت على حق تمامًا.

كنت قد تزوجت في ربيع عام ١٩٢٦، وقد مرّت سنوات و لم نرزق بذرية. وقد بدأ طبيبي، الذي كان يفحص زوجتي من وقت لآخر لأي اعتلال جسدي عابر، يقول إنها لم تكن قادرة على الحمل. وفي إحدى المرات حثني على الزواج مرة أخرى، فقلت له: على المرء أن لا ييأس من رحمة الله. ثم طرح الموضوع مرة أخرى في وقت لاحق، ووصف الأعراض التي بنى رأيه عليها وأضاف: أراهن بسمعتي المهنية أن زوجتك لا تستطيع أن تحمل طفلا.

في أيار/ مايو عام ١٩٣٦ رأت أمي في الحلم أن خادمًا جلب لها صينية تحتوي على خمس حبات من المانجو، وخمس روبيات، وحلية ذهبية تضعها النساء في الأنف، وقال إن هذه هدية من والدي. فصاحت: هذه هي الفاكهة التي قال إنه سيرسلها في صينية عندما تنضج. وفي صباح اليوم التالي استفسرتْ من زوجتي ما إذا كان هناك

أي علامة على أنها حامل، فقالت إنها لم تلاحظ أي شيء، فعلّقت أمي: قد تقولين لا، ولكن الله أعلمَني بالتأكيد بأن هناك طفلا قادما، وأنا واثقة من أن الله تعالى بفضله سيرزقك طفلا.

الواقع أن العادة الشهرية كانت قد انقطعت عن زوجتي وقالت لها طبيبتها إنها حامل، ولكنها كانت تريد التأكد تمامًا من ذلك قبل أن تكشف عن فرحتها حتى لأمي. كانت طبيبة النساء والولادة تقوم بفحصها بانتظام وأكّدت لها إنها حامل وأعطتها التوجيهات اللازمة، ولكن زوجتي لم تأذن للطبيبة بأن تخبرني إلا بعد زيارتها الرابعة، وقد سررتُ ووالدتي بالخبر الجميل.

وعندما جاء طبيبي إلى "شِمله" في المرة القادمة أخبرني أن صديقًا عزيزًا عليّ جدًا في دلهي يصاب بارتفاع درجة الحرارة كل مساء، وحثني أن أصِرّ عليه أن يأخذ إجازة وأن يأتي إلى "شِمله" للبقاء معنا بعيدًا عن الحر إلى أن يُشفى من ارتفاع الحرارة، وقد حذرته من الإصابة بالسُلّ إذا لم يعتنِ بنفسه جيدًا في هذه المرحلة، لكن يبدو أنه لم يُعِر ذلك أيَّ اهتمام.

– ربما تخوُّفك غير ضروري.

– أنا لستُ متخوفًا فقط، أنا واثق تمامًا. أنا على استعداد للمراهنة على ذلك بسمعتي المهنية.

– أعلم أنك متخصص في هذا المجال بالذات، ولكنك مولعٌ جدًا بالمراهنة على سمعتك المهنية بأوان وبغير أوان، اغفرْ لي القول، فإني لا أقيّم سمعتك المهنية بأكثر من بنسين.

- ما الذي دفعك لقول ذلك؟
- لقد راهنتَ بسمعتك المهنية على أن زوجتي غير قادرة على الحمل.
- نعم، لقد راهنتُ بذلك، وسأفعل ذلك مرة أخرى بالتأكيد، فرحمها جاف تمامًا وعاجز تمامًا عن الحمل. هذا مستحيل.
- تعال إلى الطابق العلوي وافحصْها.

لم يستغرق فحصُها أكثر من دقيقتين، فخرج من غرفتها شاحبًا يرتجف، وهزَّ رأسه وهتف: هذه معجزة، لا أستطيع شرح ذلك.

أخذ الحمل مجراه الطبيعي، وانتقلنا من "شِمله" إلى دلهي في الأسبوع الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، وفي صباح يوم ١٢ كانون الثاني/ يناير -وهو اليوم المبارك الذي هو يوم ميلاد الابن الموعود للمسيح الموعود عليه السلام، حضرة صاحبزادة ميرزا بشير الدين محمود أحمد خليفته الثاني- وقد قالتْ والدتي لزوجتي إن طفلتها ستولد اليوم، حيث إنها رأت في الحلم حفلة يقول فيها عدد كبير من الناس: قد وصلت الطفلة؛ إنها جميلة جدًا.

وهذا ما حصل؛ فسمّاها حضرة الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام باسم " أمة الحي"، ولديها الآن خمسة أطفال: أربعة أولاد وبنت بفضل الله تعالى. لقد كان قدومها الحدث الأكثر بهجة ولا سيما لوالدتي، وهو

ما كانت تتوق إليه كثيرًا من أجلي وقد دعت كثيرًا وبجدية من أجل هذه الهبة الإلهية.

منوّعات

كانت تجارب أمي الروحانية المتنوعة تشير إلى أنها كانت ذات روحانية عالية رغم أنها لم تتظاهر بذلك. في الواقع كانت متواضعة جدًا ومن ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾، ولديها إيمان راسخ بالله تعالى، وتعتمد دائمًا على رحمته وإحسانه، وكانت تكنّ عاطفةً عميقةً لجميع خلق الله دونما تمييز.

وكانت حسنة الدعابة مع كل صفاتها العظيمة، وكانت تحبني كثيرًا، ولكنها لم تكن تتردد في توجيه اللوم إذا شعرتْ أن الأمر يستدعي ذلك. والحوادث التالية توضح بعض صفاتها وعلاقتها مع الله تعالى.

كان أخي أسد الله خان في المدرسة الابتدائية، ولم يكن يعتني بألواح الكتابة، فكان يضيعها أو يكسرها بسرعة. وذات مرة نبّهته أمي بشيء من الشدة فأصيب بالإحراج. وفي تلك الليلة شاهدتْ أمي في الرؤيا شخصية غاية في الهيبة يشعّ محياه نورًا وقال لها: لقد كنت قاسية بلا داع مع عبدي بسبب مسألة لا تساوي أكثر من ربع روبية. هذه هي ربع الروبية؛ وقدّمَ لها قطعة نقدية جديدة لامعة من فئة ربع الروبية.

في الجزء الأخير من الليل، أثناء التحضير للصلاة، أخذتْ أمي إبريقًا معدنيا مليئا بالماء وخرجت تحت السماء المقمرة، فلاحظتْ حينها شيئًا صغيرًا مضيئًا يسقط من السماء ويضرب الإبريقَ مُصدرًا صوتًا معدنيًا،

ثم يتدحرج على الأرض. فرفعتْه مِن الأرض فوجدت أنها ربع روبية فِضّية. فوضعته في مكان محفوظ بعيدًا عن متناول الأيدي، ولكنها ضاعت بعد مدة نتيجة الإهمال.

في عام ١٩١٠ رأت في المنام أنها كانت تقود عربة مع ابنة أخيها في معسكر سيالكوت، وعندما مرّتا بالقرب من الكاتدرائية لاحظتْ أن حجرًا كبيرًا قد وقع من برج الكاتدرائية، تاركًا مكانه فجوة، فلفتتْ انتباه ابنة أخيها للفجوة وعلّقت بأنها تبدو قبيحة. فأشارت ابنةُ شقيقها أن هناك بنائين، قريبًا من الحجر، يشتغلون بإعداد حجر آخر مثل الذي سقط من البرج، وأن الفجوة ستُغلق في وقت قريب. وبعد بضعة أيام تم الإعلان عن وفاة الملك إدوارد السابع ملِكِ بريطانيا العظمى، وقد خلفه ابنه جورج الخامس.

كانت والدتي تبغض العاداتِ السخيفة وعديمة الفائدة الدارجة بين الأسر الريفية في ولاية البنجاب، ولا سيما تلك التي تتعلق بمناسبة حفلات الزفاف. فمثلا كان العروس والعريس يجلسان محاذيين بين حشد كبير من النساء ويتنافسان بألعاب تافهة غير ممتعة، وذلك لتقديم كل منهما إلى الآخر. واستُدعي تشودري بشير أحمد في حفل زفافه لهذه الألعاب بين النساء، وكان يعتبرها غباءً كله، ولكنه لم يكن يرغب في إحداث جلبة لا داعي لها فجلس في المكان الذي طُلب منه، ومدّ يده نحو الأدوات التي ينبغي أن تؤدى بها اللعبة، وفجأةً أمسكت والدتي يده من الرسغ بشدّة ودفعته للخلف، وهي تصيح: لا، يا عزيزي، يجب أن

لا تقوم بهذه المهزلة السخيفة الخرافية. فدفع بشير أحمد الأدوات بعيدًا وتراجعَ بسرعة وهو يشعر بارتياح كبير.

كان سيد إنعام الله مولعًا بالطعام، وكان يقوم عمدًا بالكثير من الجلبة حول الطعام، وكانت والدتي تعرف ذلك وتسرّ بتدليله في إعطائه الطعام. مرةً جاء إلى دسكه من سيالكوت لملاقاتي، -وكان يفعل ذلك عادة حين يعلم أني في دسكه- وعندما جاء وقت الغداء جلب الخادم طعامًا لكلينا من المنـــزل لقسم الرجال، وعندما رأى إنعام الله الخادم يحمل سلة كبيرة تحتوي على الأطباق قفز وجلس على الطاولة يحث الخادم: أسرِعْ، أسرِعْ، ضع الطعام. ثم مدّ يده إلى السلة وهزّها، فخشخشت الأطباق والسكاكين، فشعر الخادم بالحرج، وشعرتُ أن التصرف غير وقور، فقلت لإنعام الله لن آكل معه وسأذهب للبيت وأتناول الطعام مع والدتي. فارتبك جدًا وشعرتُ بالأسف نحوه، لكني كنت منـــزعجًا وتركته، عندما رأتني أمي قالت لي: لقد أرسلتُ الطعام حالاً؟ فتمتمتُ: سآكل معك.

- آه، يبدو أن إنعام الله عمل بعضًا من حيله فانـــزعجتَ منه. ولكن، يا حبيبي، أنت تعرف أساليبه وهو صديقك. وتذكّرْ أن الصداقة تدوم للأبد؛ إذا اتخذتَ صديقًا فعليك أن تحافظ على صداقته حتى النهاية، أو لا تبدأها على الإطلاق. لقد جرّحتَ مشاعر صديقك بتصرفك المتسرع والطائش. عُدْ إليه واعتذرْ إليه وطيّبْ خاطره. عُدْتُ إلى إنعام الله المكتئب واعتذرت إليه، وكان متأثرًا فقال: كنتُ واثقًا من

أن والدتك سوف تعيدك إلى هنا.

كنت أعمل محاميًا منذ عدة سنوات. وفي خريف عام ١٩٣٠ عندما كنت في لندن بشأن مؤتمر المائدة المستديرة الأول، وكان هناك جلسة استماع أمام مجلس اللجنة القضائية التابعة لمجلس الملكة الخاص للاستئناف حول حُكم لمحكمة لاهور العليا كنت قد طلبتُ من شركة للمحامين في لندن بمتابعته. فاتصل بي المحامي من تلك الشركة هاتفيًا وقال إنها ستكون تجربة جيدة بالنسبة لي إذا حضرتُ بنفسي جلسة الاستئناف هذه كمحامي مساعد مِن قبل مستأنفي الدعوى. لم يكن هناك سؤال عن النفقات. وفي يوم جلسة الاستماع استعار لي هذا المحامي عباءة المحاماة، وتشاورت مع المحامي الكبير بإيجاز أيضًا. وقد ترأس المجلسَ اللوردُ بلانيسبرغ، لوردُ الاستئناف الاسكتلندي.

بدأتْ جلسة الاستماع، وفي غضون بضع دقائق وجد المحامي الكبير نفسه أمام صعوبات، فلم يتمكن من تقديم تفسيرات مرضية بشأن النقاط التي أثارها أعضاء المجلس، فبدأ مجلس اللوردات بإغلاق أوراقهم. شعرتُ أنني أستطيع أن أقدم التفسيرات المطلوبة، وأحسست بالقلق إزاء الحالة التي تفاقمت. ولاحظ اللورد بلانيسبرغ انفعالي فقال: لعلك تستطيع أن تساعدنا؟ قلت: سأحاول، وبالتالي توليت المرافعة. اهتم مجلس اللوردات بما كنت أقوله وشجعني في كل خطوة، فشعرت بأنهم تمتعوا بالعرض الذي قدمته للقضية كعلاج عقلاني، وحيث إن الصعوبات بدأت تُحلّ واحدة تلو الأخرى فقد وُضع كل شيء في

مكانه، وكانت النتيجة قبول استئنافنا.

وبعد أيام قليلة حدث أن التقيتُ باللورد بلانيسبرغ خلال وليمة كبيرة، فرحب بي مسرورًا بقوله: آه، أنت الشاب الذي أنار جهلنا ذلك اليومَ في مجلس الملكة! ثم وضع ذراعه في ذراعي واصطحبني في جولة، فقدّمني لعدد من الضيوف، واقترح عليّ الذهاب لتناول الفطور معه في أحد الأيام. ثم قدم لي العشاء، مما وضع أسس الصداقة المتينة بيننا، التي لم تنته إلا بوفاته عام ١٩٤٦، عن عمر ٨٥ سنة. كان الوقت الذي أمضيته في صحبته تعليمًا وشرفًا بالنسبة لي. اكتشفتُ أنه كان جدًّ مخلص لوالدته، مما زاد في قوة الرابطة بيننا. وفي يوم اجتماعنا الأول دعاني لعشاء عمل في "شركة أبناء جولد سميث" حيث إنه المسؤول الأول فيها، وقد استمتعت بهذا العشاء جدًا. بعد عودتي إلى الوطن تلقّتْ والدتي من اللورد بلانيسبرغ طبقا جميلا من تصميم شركة جولد سميث، مكتوب عليها:

إجلال وتقدير من إنجلترا

إلى

الوالدة الهندية المخلصة

للابن الهندي المتميز

شباط/ فبراير ١٩٣١

وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣١ كان عليّ زيارة لندن موفَدًا إلى مؤتمر المائدة المستديرة الثاني، وقد اقترحتُ على أمي أن ترسل هدية إلى اللورد بلانيسبرغ فسألتني: بماذا تفكر؟ قلت: صورتك. فصاحت: ماذا سيفعل بصورة امرأة عجوز! أكدتُ لها أنه سوف يشعر بعظيم الشرف.

كان لدي دافع شخصي أيضًا وراء هذا الاقتراح، هي في الثامنة والستين وليس لدينا صورة لها، ومن خلال هذه الحيلة سوف نحصل على صورة لنا أيضًا. وافقتْ على مواجهة الكاميرا بشرطين: أنها لن تتزين للصورة ولن تحدث أي تغيير في ملابسها، وأنني يجب أن أبقى في نفس الغرفة معها.

اشتريت إطارًا بسيطًا فنيًا نوعًا ما للصورة، وطاولةَ تنسجم معها لونًا وسجادة فارسية صغيرة بحيث تشكل هذه الأشياء كلها معًا تحفة مناسبة. وقد سر اللورد بلانيسبرغ بها.

في صيف ١٩٣١ كنت مع عائلتي في دلهي بصفة كبير مستشاري مجلس التاج البريطاني في قضية مؤامرة دلهي. كانت والدتي معنا. كان هناك جفاف شديد وكان المحصول قليلاً جدًّا، فقلقتْ أمي من ذلك وسألت: من أين سيأكل المزارعون الفقراء؟! هل يمكننا أن نفعل شيئًا لمساعدتهم؟ قلت إننا سنفعل كل ما ترغب به. فشعرتْ ببعض الراحة، واقترحتْ أن نوفر المساعدات المالية لأولئك الذين نعلم أنهم سيتأثرون أكثر من جراء ذلك، فوافقتُ. فأملَت عليّ الأسماءَ والمبالغ ووضعتْ قائمة بذلك، وقالت:

- هل أنت متأكد أن هذا لن يكون عبئًا عليك؟
- ما يُسعدك لن يكون عبئًا عليّ.

الواقع أن المبلغ الإجمالي لم يكن كبيرًا جدًا ويمكنني بسهولة تحمل التكاليف. أُرسلَت الحوالات في نفس اليوم، فباركتْني وكانت ابتسامتها أيضًا تمنح البركة.

في صيف عام ١٩٣٤ ذهب حاكم ولاية البنجاب في إجازة وتولى السيرُ اسكندر حياة خان عضوُ مصلحة إيرادات حكومة البنجاب، مهمةَ الحاكم، وعند نهاية فترة مهمته قرر أن يأخذ هو نفسه إجازة عند عودة الحاكم، واستفسر الحاكمَ عمن ينبغي أن يضطلع بدور عضو مصلحة الإيرادات في حالة غيابه، فاقترح الحاكم اسمي. فاتصل السير اسكندر بي هاتفيًا من "شِمله" وتساءل عما إذا كان يمكنني أن أكون جاهزًا لذلك. فقلت لدي خطة أخرى للصيف. قال: أعلم أنك ستأتي إلى "شِمله" نهاية الأسبوع المقبل؛ فربما أستطيع إقناعك.

ذكرت هذه المسألة لأمي وكان رد فعلها سريعا ومحددا: لا، يا حبيبي، لا أعتقد أننا يجب أن نتولى مهام منصب السير اسكندر. وهذا ما كان. تلذذتُ بالذات بكلمة "إننا"، مع فارق بسيط هو رؤيتها أن ما عُرض عليّ ليس كافيًا لابنها!

توليت مسؤولية مهمتي كعضو في المجلس التنفيذي للحاكم العام في أيار/ مايو ١٩٣٥وانتقلنا إلى "شِمله"، وأثناء ذلك الوقت خلعت الحجابَ بعضُ السيدات المسلمات في ولاية البنجاب من اللواتي كن

يعتبرن أنفسهن "العصريات"، وكان هناك ميل متزايد نحو هذا الاتجاه. وكانت شابتان من أولئك العصريات صديقتين حميمتين جدًا لزوجتي، وبعد أن فشلتا في إقناعها أن تحذو حذوهما اقتربتا من أمي مرة واقترحتا عليها أن توجه زوجتي نحو خلع الحجاب. فقالت أمي: لا أستطيع فعل ذلك، فهذا يتعارض مع أحكام ربي ﷻ ووصايا نبيي ﷺ. فاحتجتا قائلتين: لماذا قلت إنهما ربّك ونبيّك؟ أليسا الله ورسوله لنا أيضًا؟ فردت أمي بصرامة: حسنًا، إذا كنتما تؤمنان بذلك فعليكما إطاعة أوامرهما.

في ٣١ مايو/أيار ١٩٣٥، ضرب "كويته" زلزال رهيب ألحق خسائر كبيرة بالأرواح والممتلكات، وكنت حينها وزيرًا للتجارة والسكك الحديدية، فأعطيتُ توجيهاتي لمجلس سكك الحديد لتسخير كل التدابير الممكنة لإنقاذ المنكوبين ونقل المؤونة وغيرها. لقد أدت السكك الحديدية عملاً جيدًا جدًا أثناء ذلك، وقُدِّر ذلك تقديرًا كبيرًا. وفي وقت لاحق، اقترح كلٌّ من السير غوثري راسيل، المديرُ التنفيذي المفوض للسكك الحديدية، والسيرُ جيمس بيتكيثلي، مسؤولُ المراقبة المالية للمتاجر، أن علينا الذهاب إلى كويته لفحص الأمور على أرض الواقع، وقررتْ أمي مرافقتنا. وكان من المقرر أن نذهب عبر سكة "تشبر" الصخرية قبل عودتنا من كويته، وهي عمل رائع في هندسة السكك الحديدية، حيث إن ذلك الجزء من خط سكة الحديد لم يكن يمر في نفق، بل يمر عبر نوع من الشرفة المنحوتة من جانب الجبل. وقبل الوصول إلى المحطة الأخيرة قبل الموضع الصخري ثبّتوا أمام القاطرة منصة

خشبية آمنة لنجلس عليها أنا والسير غوثري، والسير جيمس لنتمكن من رؤية منظر الصخرة دون عائق. كانت صالوناتنا في مؤخرة القطار، وكان صالون السير غوثري مشتركًا مع صالون السير جيمس. وكان في الصالون الخلفي منصة في الخلف وُضع عليها كرسي لأمي، بحيث حين تجلس عليه تستطيع رؤية كل شيء بأريحية.

شرحتُ لها ذلك فتساءلت: أين ستكون أنت؟ قلت لها سأكون في المنصة التي في مقدمة القاطرة.

- هل سيكون هناك مكان لي في المنصة؟
- نعم، هناك مكان، ولكنها لن تكون مريحة.
- أنا لا أهتم بعدم الراحة، يجب أن أكون معك.

خيل إلي أنها كانت مدفوعة بكل من روح المغامرة والرغبة في أن تكون معي وإن كان هناك خطر، مع أنه لم يكن هناك أي خطر.

توفي السير فضل حسين في منتصف عام ١٩٣٦، وكان ابنه الأكبر نسيم حسين صديقًا مقربًا جدًا مني، وكان أحمديًا، وكانت أمي تُقدِّره جدًا. وبعد وفاة والده الموقر بفترة جاء إلى "شِمله" لبعض الأعمال، ولما كان سيغادر في نفس اليوم فلم يكن أمامنا سوى بضع دقائق نقضيها معًا. وبعد أن غادر سألتني أمي: كيف صبرُ نسيم بعد وفاة والده؟ قلت لها إنه لم يكن لدينا الكثير من الوقت للحديث، ولكني استنتجت أنه يتحمل الأمر بشكلٍ جيد، وأضفت: لقد كنت مسرورًا على وجه الخصوص من أمرٍ أخبرني إياه، حيث قال إنه قرر أن يكون لوالدته تمامًا

كما أنا لك. فقالت أمي: هذا سيكون جيدًا له، وهذا ما ينبغي أن يكون بين الأم وابنها.

في وقت لاحق جاء نسيم حسين لزيارة سريعة أخرى، وبدا أنه قلق وقال لي: أخشى أن لا تجري الأمور بيننا وبين والدتنا على النحو الذي نتمناه. نحاول أنا وزوجتي أن نتوخى وسائل راحتها على كافة الأصعدة، ولكن لا شيء يبدو أنه يجعلها مرتاحة سواءً منا أو من بقية أولادها، فأنت تعلم أن لدينا بيتًا مستقلا من عدة طوابق وهو واسع ومريح ومؤثث جيدًا

وفي موقع ممتاز في لاهور، كما أن الطابق الأرضي مزود بكل شيء، ولا يوجد سوى غرفتين وحمام فقط في الطابق الأول، وتظل غرف الطابق الأرضي باردة حتى أيام الصيف الحارة، وقد أخلينا الطابق الأرضي كله لوالدتي، وانتقلنا للطابق الأول حيث ترتفع الحرارة خلال الجزء الأكبر من اليوم لدرجة لا يمكن تحمُّلها، ورغم أن الأطفال يعانون إلى حد كبير إلا أننا لم نشتكِ، ومع ذلك لا يبدو أن والدتي راضية عنا وتتذمر منا رغم بؤسنا، وأنا، مع ذلك، حذرٌ بأن لا أعارضها في أي شيء.

حاولت مواساة نسيم قدر المستطاع وأخبرته أن يواصل الثبات. وعندما نقلتُ لأمي ما قاله نسيم لي قالت: لستُ مستغربة من ذلك، فالسيدة فضل حسين أنانية ولا تقيم وزنًا كبيرًا للآخرين، فلديّ مخاوفي رغم ما عزم عليه نسيم كما أخبرتني. ثم أضافت والابتسامة في عينيها:

يا حبيبي، العلاقة التي بيني وبينك لا تتطلب فقط أن يكون الابن مثلك، ولكن ينبغي أن تكون الأم مثلي أيضًا!

في صيف عام ١٩٣٦، ظهر وباء الكوليرا في مدينة "قصور"، حيث كان أخي عبد الله خان المدير التنفيذي لبلديتها، فكانت أمي قلقة وتتضرع لله تعالى من أجل سلامة الناس فيها.

كان باوا جهندا سنغ -وهو قاض مدني متقاعد، وصديق عزيز عليّ- في زيارة في "شِمله" وأمضى بعد الظهر معنا. فعلِم أن والدتي رأت في الرؤيا أن الوباء في "قصور" سيهدأ تمامًا بعد أسبوع، فبدأ يتابع أخبار الوباء كل يوم في الجريدة، وفي اليوم الثامن ذُكر أنه لم يعد هناك أي حالة من حالات الكوليرا في "قصور"، فصعق باوا جهندا سنغ بما وصفه بأنه من قبيل المصادفة الرائعة. ولكنه في الواقع لم يكن شيئًا غير عادي، فكانت أمي تتلقى مرة بعد مرة إنذارًا واضحًا ودقيقًا عن تفشي الوباء وعن موعد انتهائه، سواء أكان الطاعون أو غيره.

اكتمل بناء منـــزلي في قاديان في خريف عام ١٩٣٦، وفيه ثلاث غرف كبيرة وغرفتان صغيرتان للاستقبال ووسائل راحة مناسبة، كما كان فيه ثمانية أجنحة لغرف نوم كبيرة. وقد أعطيت والدتي حرية اختيار جناح لها، فاختارت الجناح ذا المدخل الأسهل، وأوضحت أن الناس من كل الأشكال والحالات يجب أن يشعروا بحرية المشي في كل الاتجاهات كلما رغبوا في ذلك، وينبغي أن لا يشعروا بأن هناك ما يمنعهم بأي حال من الأحوال.

في قاديان لم تستخدم أمي السيارة للذهاب إلى البلدة أو للصلاة أو لزيارة حضرة أم المؤمنين أو حضرة خليفة المسيح الموعود، بل كانت دائمًا تمشي، وعندما حثثتها على استخدام السيارة، قالت: عزيزي هذه مدينة الصلحاء، والطرق مغبرة وقد يكون انتهاكًا لحرمة المقدسات إذا أثارت السيارة الغبار مما قد يضايق أي من هؤلاء المتقين.

قرب نهاية عام ١٩٣٦ بدأت مسألة زواج الملك إدوارد الثامن تثار في الصحف. طلبتُ من والدتي أن تدعو لأن يهتدي الملك للصواب في هذه المسألة الصعبة، فقالت إنها منذ بضعة أيام ترى مشاهد مربكة ومقلقة في منامها، وربما هذه الرؤى تشير إلى الحالة التي كان عليها الملك، وقالت إنها ستدعو له الله تعالى. بعد ذلك استفسرتها عن الأمر مرتين أو ثلاثًا، وكانت في كل مرة تقول يبدو أن الفوضى تتضاعف، وأنها تخشى أن لا يُحلّ الأمر بشكلٍ مرضٍ. وبعد ذلك بفترة وردت تصريحات رسمية تفيد بأن الملك قد قرر التنازل عن العرش. عندها شعرتْ أمي بالحيرة وقالت: هذا الرجل يفتقر إلى الشعور بالواجب، فهو مستعد للتخلي عن أعلى منصب في العالم من أجل امرأة!

أحدث حضرة الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام ثورة عَملية حول أهمية العمل باليد، فقد تم تعيين يوم من كل شهر يُطلب فيه من جميع الأصحاء الذكور البالغين والمقيمين في جزء معين من قاديان أن يشاركوا في بعض مشاريع العمل باليد، وفي إحدى هذه المرات في عام ١٩٣٧

كان من المقرر الاحتفال بيوم العمل اليدوي في الجزء الذي نعيش فيه من البلدة، فسألتني أمي: هل تعرف أن غدًا هو يوم العمل اليدوي؟

– نعم، أعرف.

– هل ستشارك؟

– بالتأكيد، هل لديك أي شك؟

– كنت أتساءل فيما إذا كان هناك شيء سيقف في طريقك كوزير.

– يحدوني الأمل أن شيئًا لن يقف أبدًا في طريق تأديتي كامل التزاماتي.

– هذا ما وددت سماعه.

في عام ١٩٣٧، أمضيتُ عدة أشهر في الخارج في مهمة رسمية، وعند عودتي قالت لي أمي إنها قد استفادت من الفرصة التي أتيحت لها وقامت برحلة جوية مدة عشر دقائق استمتعتْ بها كثيرًا، لقد كانت حينها في الرابعة والسبعين.

أمضينا النصف الثاني من نيسان/ إبريل ١٩٣٨ في قاديان، وفي إحدى ليالي نهاية الشهر لاحظتُ أن أمي تبدو مشغولة البال، فسألتُها عما يقلقها، فقالت: كنت عائدة من المدينة قبل الغروب بقليل، وكنت لا أزال على بعدٍ قليلٍ من منـــزلنا عندما لاحظت أن سيدة تجلس على جانب الطريق تستريح على جدار منـــزل مع فتاتين جالستين قربها، وعندما مررت بها تولدَ لدي انطباع أنها كانت تتألم، وكانت الفتاتان ترعيانها، فأسرعتُ الخطى وجلست بجوارها، ووجدت أنها حافية

القدمين وكانت تعالج إحدى قدميها بيدها، وكانت الفتاتان تمدان لها يد العون وهي تئنّ، وحين حاولتُ اكتشاف سبب وجعها وجدتُ أن مسمارًا حديديا طويلا قد توغل في قدمها وكان لا يظهر منه إلا رأسه. وكانت المرأة تعاني ألمًا شديدا. وكنتُ وحيدة ولم يكن هناك أحد على مدى بصري، فقررتُ أن أسحب المسمار بنفسي، ولكن عندما مددت يدي لذلك أصيبتْ بالهلع وتوسلتْ إليّ أن أتركها وحدها فإنها لن تطيق الألم. ومع ذلك منحني الله تعالى القوة وأمسكتُ قدمها بقوة من الكاحل بيدٍ واحدة، وسحبت المسمار باليد الأخرى ونجحت في سحبه. كان بطول بوصتين أو ثلاث وكان صَدِئًا، وعندما انتزعته تدفّقَ الدم، وصرخت المرأة من الألم، ولكن سرعان ما بدأت تشعر بالارتياح. قلت لها إن منـــزلنا ليس بعيدًا من هنا، وسأقوم برعايتك هناك، وسأغسل وأنظف لك قدمك وسأتخذ التدابير اللازمة من أجل الوقاية من العدوى. لكنها قالت قريتها ليست ببعيدة وستقوم الفتاتان بمساعدها وإيصالها إلى المنـــزل. وتابعتْ أمي تقول: إنني قلقة من أن يلتهب جرحها، وأدعو الله تعالى من أجلها.

الـوداع

على مدى سنوات تلقّتْ والدتي مؤشراتٍ عن وقت رحيلها عن هذه الدنيا، وكانت مقتنعة بأن هذه المؤشرات من الله تعالى، ولكنها كانت تدرك أيضًا أنه لا يعرف معناها الحقيقي أحدٌ سوى الله تعالى. وقبل عدة سنوات من وفاتها أخبرت أنها ستتوفى في شهر نيسان/ إبريل، ثم صرحت بعدها بعدة سنوات أن يوم الأربعاء الأخير في نيسان/ إبريل سيكون يوم وفاتها، فكتبت وصيتها بأنها ينبغي أن تدفن في مقبرة بهشتي في قاديان. وعلى ضوء ذلك رتبت على مدى عدة سنوات أنه ينبغي لنا أن نُمضي النصف الأخير من نيسان/ إبريل في قاديان، وقد تم ذلك بما يتفق مع رغبتها وكان ذلك مصدرًا لشعورها بالراحة.

بعد وقت قليل من وفاة والدي رأت في المنام أنه يرافقه تشودري ثناء الله خان، ابنُ عمه، وأعربَ عن قلقه إزاء نظراتها الحزينة، فقال ابن عمه: إنها حزينة بسبب انفصالها عنك، لماذا لم تصطحبها معك؟ كان أبي حزينًا أيضًا فقال أؤكد لك أن منـــزلها ليس جاهزًا بعد؛ وعندما يجهز سأُحضرها بنفسي.

وفي كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٨ اضطررتُ للذهاب إلى إنجلترا، فاستفسرتني أمي عما إذا كنتُ سأعود بحلول نيسان/ إبريل، فقلت لها أتوقع ذلك، فشعرتْ بالاطمئنان.

كتبت لها من إنجلترا أني أتوقع أن أعود إلى دلهي مساء يوم الأول من نيسان/ إبريل، وأعتزم التوجه إلى قاديان يوم ١٤ من الشهر نفسه، وأنه يمكن لها أن تأتي إلى دلهي أو أن تنتظرني في قاديان. وفي الأول من نيسان/ إبريل وصل القطار إلى دلهي متأخرًا أكثر من ساعة ونصف الساعة، وأُخبرتُ أن أمي كانت تنتظرني خارج المحطة في السيارة، فسارعتُ إليها، وبعد الترحيب بي قالت: كيف تخيلتَ أني سأنتظرك كل هذه الأيام في قاديان؟

بينما كنا في دلهي عانت من ارتفاع في ضغط الدم، وكانت تعاني منه أحيانًا، وقد تم علاجها منه وعاد ضغطها إلى وضعه الطبيعي.

وقبل مغادرتها إلى قاديان رأت في منامها المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام وكان يرقد على سرير ويبدو مبتهجًا جدًا، فأبهجَها ذلك فقالت له: سيدي، أودّ تدليك قدميك إذا أذِنتَ. فتكرّمَ وأفسحَ لها حيزًا على الأريكة، فجلستْ وبدأتْ تدلّك قدميه، وخطرتْ ببالها فكرة باعتبار أن حضرته يبدو سعيدًا جدًا فستطلب منه الدعاء من أجلها، وريثما كانت تدوّر المسألة في رأسها قال حضرتُه لشخص كان على يمينه مشيرًا إليها: اجعل منـــزلها فسيحًا.

أفرحَتْها الرؤيا كثيرا وأدركتْ معناها فسعدت بذلك. في قاديان روتْ رؤيتها لحضرة خليفة المسيح وأضافت وهي تبتسم: سيدي، كنت أريد أن أقدّم شكوى أن المساحة التي تُركتْ من أجلي★ لا تكفي لهذه "الرحابة" حيث تشغل إحدى الجهات شقيقة زوجته والأخرى يشغلها السيد عبد الستار الأفغاني، فقال حضرة خليفة المسيح إن البيت المذكور في رؤياها هو منـــزلها في الجنة. وعندما أخبرتني بذلك قالت لي: أنا أعرف جيدًا أن هذا يشير إلى منـــزلي في الجنة، ولكن ذكرتُ موضع قبري فقط لأمازح حضرة الخليفة.

إنها الآن كانت تبلغ الخامسة والسبعين، وتعاني من ارتفاع ضغط الدم من وقت لآخر، ورغم ذلك كانت تحضُر صلاة الجمعة، وتلقي التحية على حضرة خليفة المسيح، وتلتقي يوميًا مع حضرة أم المؤمنين.

مع أن الطقس حار في قاديان إلا أنها كانت تذهب إلى كل مكان سيرًا على الأقدام، وعندما علمتُ أن حضرة خليفة المسيح الموعود سيغادر قاصدًا السند في ٢٥ من الشهر (يوم الاثنين) قلقتُ من ذلك، لكنها اطمأنت عندما تأكدتْ من أنه لن يغادر حتى ٢٧ من الشهر (يوم الأربعاء)، وقالت لي بابتهاج: هل سمعتَ؟ حضرة الخليفة سيغادر في ٢٧ من الشهر، فأجبت: هذا ما فهمتُه، فكررتْ مع تركيز طفيف: السابع والعشرون، قلت لها: أدركتُ.

★ تعني في "بهشتي مقبرة".

ما عنتْه أن السابع والعشرين سيكون يوم الأربعاء الأخير في نيسان/ إبريل، وإذا كانت رؤياها تحدّدُ تاريخ وفاتها فستتحقق حرفيًا هذا العام، وسيغادر حضرة الخليفة قاديان بعد أن يؤمّ صلاة جنازتها. في وقت مبكر من صباح يوم السابع والعشرين قامت بزيارة "مقبرة بهشتي"، وذكرتْ لي أنها شعرت أن درجة حرارتها الداخلية قد ارتفعت، لكنها لم تَشْكُ من أمر محدد في صحتها، وأشارت حينها عدة مرات وهي نصف نائمة إلى أنها سمعتْ شخصًا يقول لآخر: شيء ما على وشك الوقوع؛ فردّ عليه ذلك الآخر: سيحدث هذه المرة بالتأكيد.

في يوم الثامن والعشرين ذكرت أنها رأت في منامها سبعَ جثث وُضعتْ جنبًا إلى جنب في مقبرة بهشتي لكي تدفن. كنا سنغادر إلى "شِمله" مساء يوم الثلاثين، وبعد ظهر ذلك اليوم اشتكت من أنها ليست على ما يرام، فبعثتُ رسالة إلى الطبيب، ولكن رسالتي لم تصل إليه، فأكدتُ لوالدتي أنها ستُفحَص من قبل الطبيب المختص لحظة وصولنا إلى "شِمله" في اليوم التالي. غادرنا قاديان في المساء، وفي "بطاله" انضم إلينا سكرتيري الخاص، فاستفسرتْ أمي عن حال زوجته، فقال إنها ترقد في مضجعها في القطار لأنها تشعر أنها ليست على ما يرام، فطلبتْ منه أمي أن يحضرها إلى الصالون؛ حيث تخلّتْ لها عن غرفة نومها وأمضتْ هي ليلتها على أريكة في غرفة الجلوس. وفي صباح اليوم التالي قالت لي إنها رأت في المنام والدي الذي قال لها: أنت مريضة على نحوٍ خطير،

وسأحضر لك الطبيب الذي رسم زيارته ٣٢ روبية. (في ذلك الوقت كانت هذه رسوم الجراح المدني).

عندما وصلنا "شِمله" قام الطبيب بفحص أمي وشخّص حالتها بأنها ارتفاع في ضغط الدم وعدوى في الكلى، وتم العلاج الذي وصفه الطبيب، ولكنها كانت تضعف على نحوٍ مضطرد. بعد وقت قصير من وصولنا إلى "شِمله" رأت في المنام أن والدي قد وصل وقال: لقد جلبتُ لك محفّةً ويمكن أن نغادر عندما تكونين جاهزة، فأجابت: أستطيع أن أكون جاهزة قبل الفجر وبذلك يمكن أن نبدأ رحلتنا خلال ساعات الصباح الباردة، فقال: من الأفضل أن نغادر بعد الثامنة صباحًا عندما ينهي الأولاد وجبة الفطور. وعندما روت لي الرؤيا وَصَفَت المحفّةَ ومعدّاتها بالتفصيل؛ ستائر من الحرير الملون، والحلي الفضية وغير ذلك.

مرت خمسة أيام، وكانت تشعر بضعف، ولكنها كانت هادئة و لم يكن هناك قلق. توضأتْ وأدّت الصلاة على سجادة الصلاة دون أن تحتاج إلى مساعدة، رغم أنها أمضت معظم وقتها في السرير. وفي اليوم الرابع قال لها الطبيب إنه ينبغي لها أن تبقى في سريرها وينبغي أن لا تتحرك. في يوم الجمعة، السادس من أيار/ مايو، ذهبتُ إليها حوالي الساعة الرابعة مساء فوجدتُها مشغولة في الصلاة على سجادة الصلاة في الشرفة خارج غرفتها، انتظرتُ حتى انتهتْ وبعد ذلك ذكَّرتُها أن الطبيب قد قال إنها يجب أن لا تتحرك من سريرها، فقالت إنها لم تشعر بأي مشكلة في أداء صلاتها بالطريقة المعتادة. فعرضتُ عليها المساعدة

لإعادتها إلى السرير فوضعتْ يدها على ذراعي بلطف وسارت إلى سريرها دون أن تشعر أنها بحاجة إلى أي مساعدة.

في ذلك المساء كنت أعمل في غرفة مكتبي عندما قيل لي إن أمي قد فقدت الوعي. ذهبتُ إلى غرفتها فوجدتُها شِبْهَ فاقدةِ الوعي وتعاني من ضعف شديد. فقمنا بتدليك قدميها، فبدأت تتحدث بوعيٍ كامل وقالت: بعد فترة قصيرة من مغادرتك لي دخلتُ في سبات وشعرت أنني في مكان ما في الظلام وحاولت الخروج منه، ورأيت خيمة فدخلت فيها ظنًا مني أنني قد أجد طريقًا للخروج من خلالها، ولكن الظلام كان حالكا داخل الخيمة، وكان هناك وحل على الأرض فغاصت فيه قدماي، وقمت بمحاولات فاشلة لأخلص نفسي منه، وبعد أن شعرت بعدم الجدوى صرخت: إذا أُعلِمَ ظفر الله خان بطريقة ما فسيجد وسيلة لإنقاذي.

وفي اليوم التالي بدتْ في حال أفضل رغم استمرار الضعف. شعرتْ مرة أنه لو كان الدكتور عبد اللطيف موجودًا لقام بعلاج أكثر فعالية. فأرسلتُ له برقية في دلهي أن أمي ترغب في أن يأتي. فوصل صباح اليوم التالي، وعندما رأته يدخل الغرفة شعرتْ بالسعادة وجلست في السرير ورحّبت به بمودة وقالت وهي تبتسم: إذا شُفيتُ هذه المرة فسوف أسلّم بأنك طبيب بارز. فأجابها: الله كريم. أرأيتِ لقد أجبتُ على برقيتك على الفور. فأجابت: لم أرسل أي برقية؛ ونظرتْ نحوي باستغراب، قلت لها: أنت تمنيتِ أن يكون موجودًا فأرسلتُ له برقية. ففحَصها

بعناية وقرر أن عليها أن تغادر مصيف "شِمله" على الفور، لأن الارتفاع يوتر قلبها. اقترح اصطحابها إلى دلهي وإبقاءها في بيته، حيث إنها ستحتاج إلى رعاية وفحص مستمرين، وسيقوم هو وزوجته برعايتها بالشكل المناسب، وطمأنها أنها ستتعافى وتعود إلى صحتها الطبيعية في غضون أيام قليلة بإذن الله تعالى. اتخذتُ الترتيبات اللازمة للمغادرة على الفور إلى دلهي. كانت واجباتي الرسمية تتطلبت بقائي في "شِمله"، ولما كان يوم الأحد إجازة فقد أجريت الترتيبات لأسافر معهم إلى مدينة "كالكا" نهاية خط السكة الحديدية، لأضعهم في القطار المتجه ليلًا إلى دلهي، وسأتمكن من الذهاب إلى دلهي في نهاية الأسبوع القادم.

أصرت زوجتي على أن تذهب مع أمي للعناية بها بعد وأثناء رحلة دلهي، لكن أمي لم توافق على ذلك؛ ففي دلهي سيكون الجو حارًا جدًا و"أمة الحيّ" الصغيرة يجب أن لا تتعرض للحرارة، وزوجة الدكتور لطيف هي بمنـــزلة ابنتها وهي واثقة من أنها ستعتني بها جيدًا. ولكن والدة أمة الحي كانت مصرة، فليس من المعقول أن تكون أمي مريضة وأن لا تكون هي إلى جانبها لتخدمها وترعاها.

الطريق من "شِمله" إلى "كالكا" منحدر، لذا فقد سارت الرحلة ببطء تحسبًا لهبوط مفاجئ لضغطها، وقد صمدتْ أمي في الرحلة بشكل جيد، وعلى الرغم من أن موعد رحيل القطار كان في منتصف الليل إلا أن الجميع استقر في مقصورته بشكل مريح بعد العشاء، وكان عليّ المبيت في استراحة السكك الحديدية وأن أعود إلى "شِمله" في وقت مبكر

صباح اليوم التالي. وقريبا من الساعة العاشرة اقترحتْ عليّ أمي أن آوي إلى الفراش، ووقفتْ لتضمّني، وعندها احتج الدكتور لطيف قائلاً: أمي، أمي، أرجوك ابقِي مستلقية. فابتسمت ابتسامة شاحبة وعلقت: عزيزي، لدي الكثير من الوقت لأستلقي، ولكن لا أعرف إذا كنت سأجتمع به مرة أخرى.

قلتُ لموظّفَي الخدمة اللذيْن أتيا معنا من "شِمله" وسيعودان معي في صباح اليوم التالي أن يبقيا في محطة السكة الحديد حتى مغادرة القطار، وذهبتُ إلى الاستراحة غير البعيدة عن المحطة. وفي صباح اليوم التالي عندما كنت جاهزًا للمغادرة وجدهما مستلقيين على الأرض الخشبية خارج بابي، فسألتهما لماذا لم يناما في السرير، فأوضحا لي أنه بعد أن تركتُ المحطة لاحظتْ أمي وجودهما على المنصة خارج عربتها فقالت لهما أن يذهبا فورًا إلى الاستراحة وأن يناما خارج بابي.

اتصلتُ هاتفيًا يوم الاثنين في دلهي، وقيل لي إن والدتي تشعر بتحسن وببهجة، وأنها عند منتصف النهار اشتكت من الغثيان الذي لم يدم طويلا. وقد اتصلت هاتفيًا يوم الثلاثاء في الصباح والمساء، وقيل لي في كل مرة أنها على ما يرام.

وفي صباح يوم الأربعاء، ١١ أيار/ مايو، كانت في نفس الحالة، وبعد الظهر اتصل تشودري بشير أحمد يقول: في حوالي منتصف النهار تدهورتْ حالة قلب الخالة، وقد أُعطِيَتْ بعض الحقن، فاستجمعت

قواها. إنها واعية الآن وتشعر بالراحة وتتحدث أيضًا، ولكن الحالة العامة تسبب القلق وأرى أنه ينبغي عليك أن تأتي فورًا.

– لا يمكنني أن أغادر اليوم، لدي اجتماع هام للغاية غدًا لا أستطيع تأجيله، سأغادر بعد ظهر الغد وسأصل دلهي صباح يوم الجمعة، وهكذا يمكنني البقاء في دلهي خلال عطلة نهاية الأسبوع.

– أخشى أنك لا تقدّر الوضع.

– أدركُ ما تعني، ولكن الواجب يقف في الطريق، الله كريم وأنا واثق من أنه سيكون رحيمًا.

– كما تريد.

اتصلت هاتفيًا في المساء وقيل لي إن الوالدة كانت أفضل وأنه لا يوجد سبب مباشر يدعو للقلق. الدكتور لطيف قد رافق الجراح في علاجها.

وفى صباح يوم الخميس كان التقرير نفسه، ومع ذلك أرسلتُ برقيات إلى إخواني وأختي بأنني ذاهب إلى دلهي وأنه ينبغي لهم جميعًا أن يسافروا إلى هناك. وصلتُ دلهي صباح يوم الجمعة ١٣ أيار/مايو، وكان أمرًا مشجّعًا أن وجدتُ أمي تبدو مشرقة ومبتهجة، وقالت لي زوجتي إن أمي أصرت أن تحممها وتمشط شعرها قبل وصولي، حتى لا أجد شعرها أشعث.

أخبرني الدكتور لطيف أن زوجتي كانت مشغولة جدًا في خدمة والدتي بإخلاص غير مبالية براحتها وصحتها الخاصة. وقد لاحظتُ أنه لم يكن أحد منا؛ سواء أبناءها وابنتها وكناتها الأخريات، قادرًا على تقديم مثل هذه الخدمة الشخصية المخلصة التي تقدمها لها كنّتها الكبرى. وقد أخبرتني أمي وزوجتي أن الدكتور لطيف وزوجته قدما الرعاية الكبيرة لها أيضًا والتي لا يتوقع أن تصدر إلا من ابن وابنة مخلصين.

قالت لي والدتي: إذا منحني الله تعالى الحياة فسأسعى لمكافأة لطيف وزوجته بقدر ما أستطيع لما قدماه لي من رعاية، ولكن مكافأتهما الحقيقية تُمنَح لهما من قبل الله تعالى فقط.

أدعو الله تعالى أن يجزي كلَّ من قدم أقل خدمة لوالدتي أثناء مرضها أحسن الجزاء، آمين.

عندما انتهى الجميع من الترحيب بي وهدأت ضجة وصولي وكنت مع والدتي وحدنا، قالت لي: والآن إذًا ...

قاطعتُها على عجل: الآن بإذن الله تعالى وفضله، ستستعيدين عافيتك، حيث يقول الدكتور لطيف إنك في حالة أفضل بكثير اليوم مما كنت عليه اليومين السابقين.

- كنت على وشك أن أقول لك الآن أن تأخذني إلى قاديان.
- لكن التسهيلات الطبية اللازمة لن تكون متوفرة في قاديان.

ابتسمتْ بإذعان و لم تواصل طلبها.

في ذلك اليوم كانت مرتاحة بالمقارنة مع الأيام السابقة، و لم تشعر بالغثيان،

وكان ذلك تحسنًا واضحًا مما أثار الأمل في أن تتحسن بشكلٍ كامل.

تقررَ أن تعود أختي وزوجات أخواتي إلى منازلهن مساء اليوم التالي، وسيغادر إخواني مساء يوم الأحد، وأنا يجب أن أعود إلى "شمِله" في نفس الوقت.

يوم السبت، ١٤مايو، لم يكن هناك أي تغيير، دُعي الجميع إلى الغداء من قبل تشودري بشير أحمد، وبقيتُ وزوجتي مع والدتي، وفي حوالي الساعة الثانية كنت أتوضأ للصلاة عندما طرق أحدهم باب الحمام وقال لي إن والدتي تريدني. فذهبت إلى غرفتها ورأيتها تضع يدها على نبضها، ابتسمتْ لي وقالت: تعال حبيبي، دَعْنا نتحدث آخرَ حديث؛ وأَرسِلْ في طلب الآخرين حيث سيكونون قد انتهوا الآن من غدائهم. كان الدكتور لطيف في الغرفة يحضر الحقنة، نظرتُ إليه مستفسرًا، فقال لي بالإنجليزية: هي أذكى مني، لقد أرسلتْ في طلبي وقالت لي إن نبضها قد توقف. قلبُها في حالة سيئة، لكني لم أخبرها بهذا، وأنا أجهز الحقنة، آمل أنها ستساعدها.

أعطاها الحقنة ووضع أصابعه على نبضها، وبعد دقائق قليلة قال لها إن نبضها أصبح طبيعيًا. أحسّتْ نبضها بنفسها وقالت: إنه ليس طبيعيًا، لقد عاد لكنه ضعيف.

اتصل لطيف هاتفيًا بالجراح ليأتي.

وعاد الذين ذهبوا لتناول الغداء، وبعد فترة قصيرة جاء شيخ إعجاز أحمد وتشودري بشير أحمد. ثم تحدثت أمي إلينا بلطف وهدوء وقالت: سوف نواجه جميعًا هذه الساعة. فراق الأهل مؤلم، وأنا، مع ذلك، راضية بمشيئة الله تعالى، وأنا ذاهبة إليه وأنا سعيدة للغاية، وأود أن آخذ إذنكم جميعًا، وأتمنى أن لا تحدثوا أي ضجة، سواء الآن أو بعد رحيلي. ثم همستْ بشيء في أُذُن ابنتها التي ردّت عليها بهمسٍ أيضًا. ثم قامت بتوديع الجميع الواحد تلو الآخر مع الدعاء لهم: أبنائِها، وكنّاتها، وبشير أحمد، وزوجته أحمدة بيغم، وإعجاز أحمد، والدكتور لطيف وزوجته أمينة بيغم التي قدمتْ لها أمي إكليلا من الذهب الأشرفي، وغلام نبي الابن الأكبر لشقيقتها المتوفية، وعزيز أحمد الابن الأوسط لأخيها الوحيد وتشودري فضل داد الكاتب المخلص الذي كان يعمل معي خلال السنوات التي كنت أمارس فيها مهنة المحاماة. ثم أرسلتْ في طلب أمة الحي وقبّلتْها قبلةَ الوداع. ثم طلبتْ سيد عبد الكريم، السائق، وشكرتْه. كان غلام نبي حزينا جدًا، فواستْه وقالت لي: إذا أخطأ في بعض الأحيان فتذكّرْ هذه اللحظة وتَغاضَ عن تقصيره.

ثم سألتْ زوجةَ شكر الله خان: هل جلبتِ لي صندوقي؟ فاستغربتْ زوجةُ شكر الله خان وتساءلت: أي صندوق؟ فأوضحتْ لها: الصندوق الذي يحتوي على الملاءات التي سأستخدمها ككفن. فبرّرت كنّتها

موقفها بالقول: لم يكن لدي فكرة أن الصندوق في دسكه، بالإضافة إلى أننا غادرنا على عجل و لم نفكر في أي شيء آخر.

أخبرتني زوجتي قبل وصولي إلى دلهي أن والدتي أعطتها تعليمات أنه ينبغي ألا تؤخذ إلى جناحها في الطابق الأول في المنـــزل في قاديان، بل في الطابق الأرضي حيث يجب أن يغسل جسدها. وكررتْ الآن هذه التعليمات لي، وعندها أشارت زوجتي أن المكان صغير جدًا ومكشوف، فقالت أمي: قبل أن أغادر قاديان قمت بجولة تفقدية، فهذا مكان مناسب جدًا، وليس صغيرًا جدًا ولا مكشوفا، بل منعزل تمامًا، وهو يكفي لهذا الغرض.

وصل الجراح في هذه الأثناء، وكان هناك اثنان من الأطباء للاستشارة، فقلت لهم إذا كان العلاج المناسب يتطلب من مريضتهم البقاء في دلهي فستبقى، ولكن إذا كان في رأيهم أن الوسائل الطبية قد استُنفدت فأودّ اصطحابها إلى قاديان حسب رغبتها. فقالوا حتى الآن لم يستجِب القلب للعلاج، وسيعطونها الآن حقنتين أُخريين، وسيُعرف ردّ فعل قلبها للحقنتين بعد ثلاثة أرباع الساعة، وحينها فقط سيتمكنون من الرد على سؤالي.

انتظرتُ بعد أن أعطيَت لها الحقن، وعند حوالي الساعة الخامسة مساء قال لي الأطباء إن قلبها لم يستجب وأنه في رأيهم سوف يتوقف عن العمل في غضون ٣٠ إلى ٤٠ دقيقة.

ذهبتُ إلى أمي وقلت لها إني أرتب لاصطحابها إلى قاديان، فشعرتْ بالراحة وقالت بحماس: بارك الله فيك. قلت: يتعين علينا نقلك إلى محطة سكة الحديد في سيارة الإسعاف، ثم ستُحمَلين إلى الصالون، مما قد يسبب لك بعض المتاعب. قالت: يا حبيبي، سترى كيف أن الله تعالى سيحميني من المتاعب.

ثم طلبت مني الاتصال هاتفيًا بحماتي "بسم الله بيغم" في لاهور والتي كانت أمي تُقدِّرها للغاية، لتلتقي بها في أمرتسار في صباح اليوم التالي عند وصول القطار من دلهي. ثم طلبتْ من أخي عبد الله خان الاتصال هاتفيًا بشخص في "قَصور" ليذهب على الفور بالسيارة إلى دسكه ويحضر صندوقها الذي يحتوي على ملاءاتها إلى أمرتسار صباح اليوم التالي. وحيث إنها قد حضّرت كل ما كان في ذهنها فهي جاهزة الآن لتسليم روحها لخالقها الرحمن.

وُضعتْ والدتي في سريرها في الصالون دون أية مشاكل. ومما كان يدعو للاستغراب أنه خلافًا لرأي الأطباء فقد استمر نبض قلب أمة الله هذه المتواضعة المؤمنة بفضل الله تعالى، رغم أن حركته بدأت تزداد ضعفا بالتدريج.

سافر معها إلى قاديان في نفس القطار أفراد الأسرة والخدم، وكذلك الدكتور لطيف، وشيخ إعجاز أحمد وتشودري بشير أحمد، اللذان كانت تحبهما كأبنائها، وبقيتُ وأخي شكر الله خان مع والدتنا في غرفة نومها. ويبدو أنها كانت تنام بسلام لا يشوبه سوى حدوث ارتعاش

طفيف لاإرادي أحيانًا. ونحو الساعة الحادية عشرة حثّتنا على الذهاب للنوم.

انسحب شكر الله خان، وحين وجدتُ نفسي وحيدًا معها قلت لها: لَمْ تقولي لي أي شيءٍ خاص. فأجابت: لم أقل شيئًا خاصًا لأي أحد.

- لكني لست أي أحد، نحن أحبة.
- نعم نحن كذلك.
- أدركتُ أنها قد ابتعدتْ عن كل شيء، وكانت مشغولة كليةً بالانتقال من عالم الوهم -﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(آل عمران: ١٨٦)- إلى عالم الحقيقة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت: ٦٥). وقد نُقلتْ إلى قاديان بشكلٍ سهلٍ وهادئ.

لم تشعر بأي ألم خلال فترة مرضها، بفضل الله تعالى، ولم تبدِ أي خوف. وعندما شعرت بأن النداء الإلهي قد حان أجابت بابتهاج، بل بشغف. وروحها الآن مشغولة بوداع جسدها الذي سكنتْه خمسة وسبعين عامًا، وأثناء ذلك تركتُها بسلام.

جاءت "بسم الله بيغم" إلى أمرتسار، وأشارت لها والدتي إيماءً أنها ترغب منها أن تكون بمثابة أم لشقيقتنا، التي كانت في عالم آخر تمامًا مكرسة نفسها لعبادة الله تعالى ودفع الصدقات.

وقد قال المبعوث الذي ذهب من "قَصور" إلى دسكه لإحضار الصندوق الذي يحتوي على الملاءات أنه لم يكن قادرًا على إيجاد الصندوق، فأُرسل مرة أخرى مع توجيهات أكثر تحديدًا، ووصل الصندوق إلى قاديان بعد الظهر.

وصل القطار قبل الساعة العاشرة إلى قاديان، وقلت لأمي نحن الآن في قاديان، فرحبت بذلك بالقول: بسم الله! بسم الله! كان اليوم الأحد، ١٥ أيار/ مايو، وهي الفترة الأشدّ حرًّا في السنة، وكان الصالون مكيفًا، فسألتُها عما إذا كانت تود البقاء في الصالون، فأعربت عن رغبتها بأن تؤخذ إلى المنـــزل. فوُضع سريرها في غرفة في الطابق الأرضي، فشعرتْ بالارتياح لأنها وصلت إلى حيث ترغب. لقد حققت الرحمةُ الإلهية جميع رغباتها؛ قاديان كانت موطن المسيح الموعود عليه السلام وكانت تحظى بنورٍ إلهي ورحمة إلهية، سيسجّى جسدها قريبًا إلى مثواه في الأرض عند أقدام رفيق حياتها. لقد كانت روحها جاهزة لدخول المحفّة التي ستنقلها إلى عالم الفردوس.

وصل دسكه نبأُ وصولها إلى قاديان، فاستمر وصولُ الأقارب والأصدقاء بأعداد كبيرة خلال الساعات الأخيرة من اليوم، ومع مرور الساعات بدأ نفَسُها يصبح أبطأَ، ولكن وجهها أخذ يشرق. فأشار بشير أحمد إلى إعجاز أحمد حول هذا الأمر وتلا بيتًا من الشعر البنجابي: يُعرف القديس من النور الإلهي على محياه.

جنّ الليل، ويا لها من ليلة مباركة بشكلٍ واضح! يكاد يُلاحَظ نـــزول الملائكة.

طلب "ميان جومان" -الذي خدم الأسرة كمضيف منذ زمنِ جدّي ورافقَ والديّ إلى الحج وكان وفيًا وصديقًا مخلصًا- أن يسمح له بإلقاء التحية الأخيرة على أمي. كانت قد فقدت الوعي بعض الوقت، وحين عرّف نفسه لها وحيّاها رفرفتْ أجفانها في استجابة. وفي حوالي الساعة الثالثة صباحًا فقدت الوعي تمامًا، وأصبح نفَسُها غيرُ المحسوس تقريبًا المؤشرَ الوحيد على أنها لا تزال على قيد الحياة. انتهت رحلتها الطويلة، وستنتقل إلى العالم الآخر.

في الساعة الثامنة دخل السيد "غلام نبي" وأشار أن وجبة الإفطار جاهزة، ولكن لم يكن لأحد شهية للأكل. قلت له: أحضِرْ لي كوبًا من الحليب، فعندما يعرف الضيوف بأني آكل سيتناولون الطعام. فنظرتْ إليّ زوجتي متفاجئة، فذكّرتها برؤيا والدتي: "بعد أن يتناول الأولاد وجبة الفطور". وبعد ساعة من ذلك أفادنا "غلام نبي" أن الجميع قد تناول الفطور.. توقف نفَسُها. ﴿كُلُّ مَن عليها فانٍ * ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرامِ﴾(الرحمن: ٢٧ و٢٨).

في دلهي قدّر الأطباء أن قلبها لن يعمل أكثر من أربعين دقيقة، ولكن الرحمة الإلهية التي تمنح أربعين دقيقة منحتها أربعين ساعة!

سُجّيَ جسدها تحت إشراف السيدة "بسم الله بيغم"، وعندما تم تجهيز كل شيء جئت لألقي النظرة الأخيرة على أحبّ وأغلى وجه. وجدتُه

جميلا بشكلٍ لا يوصف. لم تكن تبدو بعمرٍ أكبر من خمسة وعشرين سنة. لم يكن هناك سوى خصلة صغيرة من الشعر الأبيض على طرف جبهتها. كانت شفتاها منفرجتين قليلا بابتسامة يبدو عليها الاسترخاء التام والسكون. لم أستطع تحمل رؤية كل ذلك المجد لأكثر من ثانية وانسحبتُ على عجل.

وفي ظهر يوم الاثنين السادس عشر من أيار/مايو، دُفن رفاتها في مقبرة أهل الجنة، حيث ووريت الثرى عند أقدام زوجها.

صاحبزادة ميرزا بشير أحمد، وصاحبزادة ميرزا شريف أحمد وغيرهما من أفراد أسرة المسيح الموعود عليه السلام كانوا من بين المعزّين، أما حضرة الخليفة الثاني رضي الله عنه فقد كان في السند، فبعث البيان التالي لينشر في جريدة الفضل:

"لقد وردتْنا أخبار وفاة والدة تشودري ظفر الله خان، ويؤسفني أنني بعيدٌ جدًا عن قاديان ويبدو من غير المرجح أن أتمكن من المشاركة في صلاة جنازتها، الأمر الذي يحزنني.

عندما وصلني الخبر المحزن أرسلت رجلاً بالسيارة إلى "ميربورخاص" لمعرفة ما إذا كان يمكنني أن أصل إلى قاديان في الوقت المناسب، فلو كان ذلك ممكنًا فسأكون قادرًا على تحقيق رغبتي بإمامة صلاة الجنازة عليها والمشاركة في دفنها، وإلا فسأرضى بمشيئة الله تعالى.

زوجُها تشودري نصر الله خان كان مِن أخلص الأحمديين. كان أولَ شخص لبى دعوتي وكرّس نفسه لخدمة الدين، حيث انتقل إلى قاديان

وبدأ مساعدتي، ولذلك تستحق زوجته مني الكثير، كما تستحق الكثير من الجماعة أيضًا. ثم إن تشودري ظفر الله خان، الذي أظهر منذ سنواته الأولى صفاتِ الذكاء والنجاح، أعلن منذ بداية خلافتي عن حبه وتفانيه، والمتوفاة هي والدته، ولذلك أيضًا تستحق مني الكثير. وبالرغم من أن علاقة معظم النساء مع الجماعة تكون بالنيابة، أي من خلال الأب أو الابن أو الشقيق، إلا أنها كانت واحدة من النساء الاستثنائيات التي كان لها علاقة مباشرة مع الجماعة. لقد انضمَّتْ إلى الجماعة قبْل زوجها، وحين حصل الانشقاق في الجماعة أقسمت على الولاء للخليفة قبْل زوجها أيضًا. لقد كانت تقدم دائمًا دليلا قويًا على تفانيها وغيرتها على دينها. وكانت السبّاقة إلى دفع التبرعات وإلى رعاية المحتاجين والفقراء، وبسبب استعانتها الدائمة بالدعاء قد شرّفها الله تعالى بالرؤى الصالحة المتتالية، وقد وُجّهت إلى الانضمام إلى الجماعة من خلال الرؤى، وكان من نتيجة الرؤى أيضًا أنها أقسمت الولاء للخلافة.

لا أستطيع نسيان الحادثة التالية التي يمكن أن تكون مثالا يحتذى لكثير من الناس؛ ففي ذروة تحريض الأحرار ضد الجماعة قام شخص أحراري بالاعتداء على ميان شريف أحمد بالعصا، وعندما علمتْ بذلك أصيبت بالحزن العميق، وأخبرتْ تشودري ظفر الله خان مرارًا وتكرارًا أنها لا تشعر بالأسى لذلك فحسب، بل إن فكرة عذاب حضرة أم المؤمنين لا يمكنها احتمالها، فقالت له في أحد الأيام: لقد أعلنت السيدة ولينغدن أنها تُكِنّ عاطفة كبيرة لي، فهل يمكنك أن ترتب لي لقاءها عندما يكون

نائبُ المِلك حاضرًا أيضًا كي أحدّثها بشعوري؟ فقال لها لن يكون هناك صعوبة في ذلك، ولكن ما تريد قوله يجب أن تقوله بنفسها. فأكدتْ له أن لا داعي للقلق، فالله تعالى سوف يوجّهها. لم يكن مراعاة الحجاب في سنها يشكل أي صعوبة بحسب القرآن الكريم. تم اللقاء حسب رغبتها، وكان تشودري ظفر الله خان المترجم، والسيدة ولينغدن كانت في الجوار.

قالت لنائب الملك: أنا امرأة ريفية، أعرف القليل عن الحكومات وسياساتها. لقد قال لنا حضرة المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام إن البريطانيين جيدون، لذلك فقد كنت أدعو للبريطانيين من قلبي. عندما ابتلي البريطانيون بالمحنة كنت أتضرع لله تعالى والدموع في عيني قائلة: يا رب، احرسْهم وساعدْهم ونَجِّهم من تلك المحنة، ورغم ذلك فإن جماعتنا اليوم، ولا سيما في قاديان، تُعامَل معاملة سيئة، ومع ذلك لا أزال أدعو لبريطانيا بسبب تعليمات حضرة المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام، غير أن دعائي لا يخرج من قلبي لأن قلبي غير راضٍ. ماذا فعلنا حتى تساء معاملتنا؟ تأثرت السيدة ولينغدن بهذه الكلمات البسيطة لدرجة أنها سحبت المتكلمة قريبًا منها، وحاولت مواساتها، وطلبت من نائب الملك أن يعير هذه المسألة اهتماما خاصا.

كم من الرجال الذين يستطيعون التعبير عن سخطهم باسم الجماعة بتلك الشجاعة! أدعو الله تعالى أن يتغمد روح الفقيدة برحمته وأن يمنّ عليها بنعمته، آمين.

أحبّتْ تشودري ظفر الله خان أكثرَ من بقية أبنائها، وكثيرًا ما كانت تقول إن الله تعالى شرّفه أكثر من الآخرين، وكان هو يجلّها أكثر من البقية. وقد أتت معه بمناسبة اجتماع مجلس الشورى والتقت بي مرتين أو ثلاث مرات، كانت في غاية الابتهاج لكنها قالت إنها تشعر بالفراغ داخلها. أُخبرتْ في الرؤيا أنها سوف تموت في نيسان/ إبريل، ولكن الأحلام تخضع للتفسير، يبدو أن مرضها القاتل قد بدأ في نيسان/ إبريل، فوفاتها بعد وقت قصير من إبريل دليل صادق على أن رؤياها كانت حقيقية.

قبل سنة أو سنتين رأيتُ في المنام أني أجلس في غرفة مكتبي وتشودري ظفر الله خان مستلقٍ أمامي، وكان يبدو أنه يبلغ من العمر أحد عشر أو اثني عشر عامًا، وكان يسند رأسه بكف ذراعٍ مرفوعة، وكان على أحد جانبيه يجلس شقيقه عبد الله خان وعلى الجانب الآخر شقيقه أسد الله خان، وكانا يبدوان في عمر ثمان أو تسع سنوات، وكان الثلاثة قبالتي ويتحدثون معي، وشعرتُ بأنهم أبنائي، وكانوا يُصْغون إلي باهتمام ومشاعر عميقة، فتحدثتُ إليهم بحميمية كما يتحدث الأب لأبنائه في المنـــزل براحة. من الممكن أن هذه الرؤيا كانت نذير وفاة والدتهم، لأن القانون الإلهي يقتضي أنه حين يموت أحد الوالدين يحل آخر مكانه.

والدها كان أحمديًا. وكذلك كان شقيقها تشودري عبد الله خان من مدينة "داته زيدكا" أحمديًا مخلصًا ومتحمسًا، وهو أمير الجماعة في تلك

المنطقة. ومنذ عهد خليفة المسيح الأول رضي الله عنه كان صديقًا مخلصًا لي، وكان في كافة المناسبات السبّاق في التعبير العملي لحماسه.

أدعو الله تعالى، أن يرضى عن المرحومة وأن ينعم عليها بقربه، وأن لا يحرم أبناء أسرتها من بركة دعائها، وأن تستمر بركة تضرعاتها من أجلهم حتى بعد وفاتها.

وكتب حضرة خليفة المسيح الكلام التالي لينقش على قبرها:

زوجة تشودري نصر الله خان -رحمه الله- وأمُ تشودري ظفر الله خان -أطال الله في عمره. كانت ترى الرؤى الصالحة، ومن خلال الرؤى تعرفتْ على المسيح الموعود عليه السلام وبايعته قبل زوجها. وقد وُجِّهتْ من خلال الرؤى إلى الصواب فيما يتعلق بمسألة الخلافة، وبايعت الخليفة قبل زوجها أيضًا. كان لديها غيرة كبيرة على دينها. كانت لا تخاف من بيان الحق. كانت تهتم برعاية المعوزين وتعيش حياة بسيطة متقشفة. كانت زوجة فاضلة وأمًّا محبة. أدعو الله تعالى أن يرحمها ويرحم زوجها الذي كان خادمًا مخلصًا للجماعة، وأن ينــــزلهما منــــزلا قريبًا منه تعالى وأن يحمي ذريتهم، آمين.

في سياق رسالة التعزية كتب نائب الملك، اللورد لينليثجو: أي نوع من العزاء أستطيع تقديمه لك يا مَن تملك الإيمان الصادق. ربما يمكنك أن تشعر بالراحة من التفكير كيف كانت تبذل كل ما في وسعها لتراك تحتلّ أعلى منصب في الدولة.

في لندن، بعد ثمانية عشر شهرًا من وفاة والدتي، قالت السيدة ولنْغْدن لأنور أحمد كاهلون: لا بد أن وفاة والدته جعلتْه يشعر بالوحدة الكبيرة. لقد كانا مخلصيْن جدًا بعضهما للبعض.

بعد سنوات من ذلك، قام صديق عزيز جدًا عليّ بزيارة قبر والدتي، وهو الدكتور إيتالو تشيوسي، وهو من أبناء الجماعة المخلصين، الذي لم يكن يعرف أمي، ولكنه عَلِمَ بالرابط القوي بيننا. وبينما كان واقفًا يدعو لها ولوالدي لاحظَ أن بقعة صغيرة من التراب على الجانب الآخر من التلة التي فوق قبرها من ناحية القدمين تبدو وكأنها أصبحت رطبة، ثم توسعت البقعة وبدأت المياه تخرج منها، وخلال دقائق تحول إلى تيار سريع من المياه الصافية الشفافة، وحين أنهى دعاءه توقف الماء.

كنت في الخامسة والأربعين عندما توفيتْ، ومضى على وفاتها الآن ثلاثة وأربعين عامًا. رغم أن حياتي مليئة بالمشاغل بفضل الله تعالى، إلا أن الحنين نحو والدتي وذكرياتها لا تزال تتدفق بقوة كالسابق. إن حنان الأم يؤثر بي دائمًا، وقلة اهتمام الأبناء بالأمهات تجرح أعماقي. في خضم اضطرابات الحياة الملهية ألتمس العزاء من خلال الأمل باجتماع الشمل مع والديّ وجميع الصالحين، وأستمد هذا الأمل من الوعد الإلهي: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢٢).

رَبِّ أَنْــزِلْ على قبر والديّ بركاتِ رحمتك، وأدخلْهما بفضلك العظيم في جنات النعيم، آمين.



المؤلف



حضرة شودري محمد ظفر الله خان رضي الله عنه

(١٨٩٣ — ١٩٨٥)

وزير خارجية باكستان (١٩٤٧ -١٩٥٤).

قاضٍ في محكمة العدل الدولية في لاهاي (١٩٥٤-١٩٦١)،

ونائب الرئيس لها (١٩٥٨ -١٩٦١)

رئيس الدورة السابعة عشرة للجمعية العامة في الأمم المتحدة (١٩٦٢-١٩٦٣)

قاض في محكمة العدل الدولية (١٩٦٤ -١٩٧٣).

رئيس محكمة العدل الدولية (١٩٧٠ -١٩٧٣).

